16 ème Année No. 807

Lundi — 20 — 12 — 1948

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٨٠٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ صفر سنة ١٣٦٨ — ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٨ » السنة السادسة عشرة

فى سبيل سياسة إيجابية

للجامعة العربية

للاستاذ عمر حليق

من الأخطاء التى ارتكبها العالم المتمدن اعتقاده أن العلة الأساسية التى جعلت تاريخ الإنسانية فى الخمسين سنة الأخيرة سلسلة من الحروب الداخلية والخارجية هى فساد المذاهب السياسية ، وأن الدواء الوحيد لها هو تغيير هذه المذاهب . ومن هنا تولدت الأنظمة النازية والفاشية والشيوعية والديمقراطية المعاصرة والاشتراكية ، ومن هنا كذلك تألفت عصبة الأمم المنحلة ، وهيئة الأمم القائمة .

هذا الاعتقاد خاطىء لأن التجارب المريرة التى مرت بها الانسانية فى ظل هذه النظم — نازية أو ديموقراطية أو شيوعية فى عصبة الأمم أو فى هيئة الأمم المتحدة — كلها لم تُشف الانسانية من علة الحروب ومن علة الشقاق الداخلى ومن علة التناطح فى العلاقات الدولية .

هذا الاعتقاد خاطىء لأنه يعالج النظم قبل أن يعالج الفرد الذى يتبنى هذه النظم ويتولى تنفيذها أو يعمل على تقييد نفسه بالتزاماتها . وهو خاطىء لأنه فى حماسته لتحقيق الأهداف نفسى أو يتجاهل خطورة السبل والوسائل .

فمصيبة النازية والشيوعية والديمقراطية الغربية ، ومصيبة عصبة الأمم وهيئة الأمم ليست فقط فى المبادىء والفلسفات التى بنيت عليها ، فكلها مبادىء تتوخى — نظريا على الأقل — إسعاد المجتمع الذى تعمل فيه وتوفر له الاستقرار والرخاء .

ولكن المصيبة فى الأفراد الذين تولوا ويتولون العمل لها ، ومصيبة الوسائل والسبل المتخذة لتحقيقها .

وجامعة الدول العربية هى واحدة من هذه المذاهب السياسية التى شعر سكان الشرق العربى بحاجتهم إليها فى هذه المنطقة الخطيرة من العالم ؛ وفى هذه الفترة الدقيقة التى تمر بها المجتمعات الصغيرة المتقاربة المتشابكة التى تنطق بالضاد .

وفى هذه الأزمة النفسانية العاصفة التى تجتاح العالم العربى ، وفى أعقاب هذه النكسات السياسية فى هيئة الأمم والعسكرية فى الميدان تتناول ألسنة الرأى العام الجامعة العربية بالنقد اللطيف حينا والعنيف أحيانا . وفى هذه الأزمة تتعرض المبادىء والفلسفة التى بنيت عليها الجامعة العربية لخطر جسيم . ولعل هذا الخطر هو أو هى ما يواجه الشرق العربى فى تاريخه الحديث ، وفترة فاصلة فى مستقبله .

وفى هذه الأزمة النفسانية قد يقع العرب فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الكثيرون حين ألمت بهم أزمات مشابهة ، فهم فى بلبلتهم العسكرية والعاطفية يميلون لأن يجسموا موطنا واحدا من مواطن الضعف فى نظرة ضيقة ، بل هم أميل إلى البحث عن لون من الحياة جديد .

وتكرر المأساة من جديد وهكذا دواليك .

فليس من الغريب إذن أن يتخذ بعض الناس هذه النظرة نحو جامعة الدول العربية وفكرة الوحدة العربية إجمالا فإن هذه النزعة وليدة شعوبية متأصلة ، ولكنها في أغلبها مخرج من أزمة نفسية .

ولهذا ، فإن الأزمة التي تواجهها الجامعة خطيرة خطورة الفكرة التي تحملها . ولنقرر قبل كل شيء أن الفكرة والمبادىء التي بنيت عليها وتدعو إليها الجامعة العربية هي مبادىء سليمة . هذه أمور أساسية مستمدة من صميم الفكر السياسي والاقتصادي المعاصر ، ومن صميم المقدمات الثقافية (وهي تشمل السياسة والاقتصاد والعاطفة) التي يعيش عليها الناطقون بالضاد في الشرق الأدنى .

هي مستمدة من صميم الفكر السياسي المعاصر لأنها دعوة إلى التآلف الأقليمي والتكتل السياسي ، على أساس المصلحة الحيوية المشتركة في السياسة والاقتصاد والعصبية الثقافية وجميعها دعائم ضرورية للحياة الشريفة .

والجامعة العربية هي أول محاولة جدية للتعاون الأقليمي على أحدث ما أنتجته الفلسفة السياسية المعاصرة . والتعاون الأقليمي منصوص عليه في ميثاق الأمم المتحدة ، ويحتل مكانة بارزة أشد البروز في تكوين هيئة الأمم المتحدة الداخلي وفي نشاطها ونشاط فروعها والوكالات الخاصة الملحقة بها .

فمحاولة حلفاء الغرب توحيد أوروبا الغربية ومحاولة الروس في شرق أوروبا ، ودول العالم الجديد في مشروع الحلف الأمريكي مسبوقة بمحاولة الجامعة العربية للتكتل على دعائم أمتن وأبعد شأوا وأرفع في مقاييس الخير والشر في العلاقات الدولية .

ومع ذلك فإن الجامعة العربية تواجه أزمة من طراز حاد ، والسبب في ذلك لا يرجع إلى مبادئها وأهدافها ولكن إلى الأفراد والسبل التي تحمل الدعوة إلى هذه المبادىء وتعمل لتحقيقها .

وقد أصبح التنديد بالزعماء والقادة من قبيل الكلام المبتذل ، ولقد جسمته ألسنة الرأي العام العربي ، فجعلته السبب الوحيد في هذه الأزمة التي يمر بها العرب اليوم ، ومن النادر أن نرى في هذا التنديد دراسات منتقدة للسبل والوسائل وللنواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تتحداها هذه الأزمة .

وعلة الجامعة العربية هي في افتقارها إلى إدارة رشيدة وخطط عملية ووسائل مرضية لتحقيق الهدف والفكرة التي تعمل لها فإنك لن تستطيع بلوغ هدف قبل أن تضع للوصول إليه خططاً وبرامج عملية وجهازاً إدارياً حازماً لتنفيذها .

والجامعة العربية في حالتها الحاضرة تحتاج إليهما جميعاً .

ولقد اعتدنا في الشرق العربي أن نتناول القادة من حيث (وطنيتهم) وما إلى ذلك من بقايا عهد النضال ضد الحكم الأجنبي . وقل أن نتناول القادة والزعماء من حيث مقدرتهم وصلاحيتهم ومؤهلاتهم العلمية واستعداداتهم النفسية . وكل توجيه سياسي لا يتوخى دراسة القادة على مثل هذا الضوء توجيه مشوه ضعيف .

والجزء الأكبر في هذه المقدمة الحادة التي جلبتها الجامعة العربية على نفسها والتي خلقتها ظروف وملابسات طارئة ، هي فقدان الكفاية والمؤهلات والاستعداد العلمي والنفساني في الجهاز الإداري ومراكز التوجيه والمسئولية فيها .

فالجامعة لا تزال تنظر إلى نفسها ، ولا يزال الناس ينظرون إليها على أنها رمز للوحدة العربية ، بدل أن تنظر إلى نفسها كبرنامج للوحدة وكمشروع إنشائي .

والجامعة عربية « بدوية » من حيث أنها تتناول الأشياء في نظرة شاملة على حين يتجه العالم نحو التحليل والتخصص . والجامعة في نظرتها هذه لا تجاري النزعة « العلمية » التي أخذت تتمكن من العقلية العربية المثقفة .

في هذه السنوات الثلاث التي مرت على الجامعة منذ تأسيسها أحرزت تقدماً سياسياً ملحوظاً وملموساً ، ولكنها قصرت تقصيراً مخجلا في الاقتصاد والمواصلات الفكرية والتعاون الثقافي والاجتماعي ، وذلك لأن المشرفين عليها يبدو أنهم لا يقدرون قيمة هذه النواحي في التعاون الإقليمي الصحيح ، والسياسة ليست وسيلة للتعاون الاقتصادي والفكري ولكنها نتيجة لها .

هذه الأصوات النابزة التي تصدر هنا وهناك وهذا الركود السياسي البادي في المملكة السعودية واليمن هي وليدة قصور الوسائل في الجهاز الإداري للجامعة العربية .

وهذا القصور لا يرجع إلى الصخور الشماء التي تقف في سبيل برامج الدوائر الثقافية والاقتصادية في الجامعة . ولكنه يرجع إلى فقدان هذه البرامج .

لقد عجزت مثلا الإدارة الاقتصادية في الجامعة عن أن تضع

لها أسباباً رفيعاً في هذه الثورة الصناعية التي تحتاج نجداً والكويت وتكاد تفصل شرق العالم الغربي عن غربيه وأواسطه ، اقتصادياً واجتماعياً . فلاغرابة إذن أن سياسة البترول (وهي سلاح خطير في العلاقات الدولية) في الجامعة العربية مقيدة باعتبارات سياسية محلية .

إن طائفة من الدراسات وسلسلة من المؤتمرات وثغرات الخبراء تفيد الجامعة في هذه الثورة الصناعية الخطيرة في طهران والبحرين والكويت فوائد جسيمة للتعاون السياسي والاقتصادي ولمستقبل الوحدة العربية إجمالا .

فهو أولا : محاولة لتعريب آبار الزيت تدريجياً فتوفر العمل والانتفاع المادي والمعنوي لألوف السعوديين والسوريين والمصريين وغيرهم من العرب في هذه المنشآت التي يمتص بها الأمريكان ذهب الصحراء ، ولربط قلب الجزيرة بالهلال الخصيب ووادي الكنانة من طريق استيطان هؤلاء العمال . وأي خطر على المستقبل الاجتماعي والثقافي — ولا نقول السياسي — للوحدة العربية وللتعاون الإقليمي جاثم في هذه الألوف من العمال الأمريكان والطليان وغيرهم الذين أنشأوا في قلب نجد والكويت قطعة من أمريكا ومستعمرات إيطالية و « جوالي » أجنبية الثقافة والولاء لا تبدو خطورتها إلا حيث ترسخ جذورها هنا وهناك كما رسخت في الاسكندرية وفلسطين .

وهي ثانياً : تحيط البيت السعودي بمجموعة عربية مستنيرة تعرف مايفعله الاستغلاليون الأمريكان في ذهب الصحراء وترقبهم في ذكاء العالم الخبير بدل أن تترك البترول والبيت السعودي المالك والمجتمع السعودي إجمالا والتعاون الاقتصادي العربي فريسة في يد الاستغلاليين الماليين ومعهم حفنة من المرتزقة العرب الذين ضربوا نطاقاً حديدياً على البلاد السعودية وآثار هذه العزلة الاقتصادية في البلاد السعودية علاوة على أضرارها السياسية الوخيمة (كما تشهد قضية فلسطين) كونها نقطة أمريكية استراتيجية فإن لها خسائر اقتصادية جسيمة على باقي أقطار العالم العربي ؛ هذه الخسائر لا يقدرها إلا الذين أتيح لهم الاطلاع على نخامة التبادل التجاري الذي تمتص به عشرات الشركات التجارية في نيويورك الدخل القومي للمملكة السعودية في جميع أوجه التبادل التجاري وبعملة صعبة كالدولار الأمريكي الذي يحتاج إليه الاقتصاد العربي في سوريا ومصر والعراق ولبنان وفلسطين حاجة ماسة . والقصور في هذا التعاون الاقتصادي ملموس في أكثر من ناحية ، وليست سبب موانع سياسية فقط . ولكنه في أساسه قصور في التعريف بفوائده ودراسة لفوائده المادية والعملية دراسة علمية وتعميمها بنباهة وعلى نطاق واسع . هو قصور في الوسائل والسبل . والواقع أن الجامعة العربية قد أهملت استعمال أمضى الأسلحة لتدعيم كيانها والأهداف التي تدعو إليها ، وهي دعائم الرخاء والاستقرار في هذا الجزء الهام في العالم .

هذه الذئاب التي تجثم على أطراف الشرق العربي لتنهش منه وتعيش على خيراته ما الذي يدفعها إلى ذلك ؟ ما سر تنافس الروس والأمريكان والبريطانيين على هذا الشرق ؟ وهذه الثعالب الراقدة بين ظهرانينا تستثمر اللابين في الشركات « المصرية » وفي مشاريع اليهود في فلسطين ، أليست وليدة المعرفة بالإمكانيات الغربية الكامنة في الشرق العربي ؟ كم يعلم المواطن العربي عن هذه الإمكانيات ؟ لمحات خاطفة في الصحف السيارة لا تشفي الغليل ولا توقظ في النفس وعياً اقتصادياً صحيحاً . الفائدة التي تجنيها الجامعة العربية والفكرة التي تعمل لها عظيمة لو أن الدوائر المختصة في الجامعة جمعت أو كلفت من يدرس هذه الإمكانيات في إسهاب ودقة لتعممها على أوسع نطاق ؛ ولم تترك ألسنة الرأي العام العربي والمثقفين العرب في معلوماتهم عن الوضع الاقتصادي في الأقطار العربية فريسة للمعلومات المشوهة المغرضة التي تصدرها المصادر اليهودية والشركات الأجنبية في عشرات البحوث والنشرات . ولماذا يكون المواطن العربي أجهل الناس بوضع بلاده وخطورتها في الاقتصاد الدولي ؟ قد لا تلام الجامعة العربية وحدها على هذا التقصير . فالخبرة الفنية متوفرة في معاهد العلم والدوائر الحكومية والحكومات والأوساط العلمية العربية والمثقفون الخبيرون يشاركون الجامعة وزر هذا الإهمال الضار .

وخذ مهزلة التعاون الثقافي . كأن الثقافة صرف ونحو وترجمة . ليس للجامعة العربية نشرة واحدة محترمة تحمل رمز هذا التعاون ورسم المناهج له ، وليس لها وسيلة واحدة في وسائل المواصلات الفكرية لتنقل إلى بيروت وبغداد أنباء البحث ونجد والكويت ، والصحف العربية لا تزال فريسة الدعاية الأجنبية الخبيثة عن طرق وكالات الأنباء الأجنبية حتى فيما يتعلق بالشؤون العربية الصرفة . وكم من بلبلة أوجدتها هذه الوكالات في الحياة العربية الداخلية بوسائلها الخبيثة . وشكراً لمصر التي تكاد تحتكر الإنتاج الفكري والصحفي فتؤلف نوعا مشوها من الوحدة في الاتجاهات

الفكرية والعاطفية ، مشوهاً لأنه يفقد عناصر التوجيه القوى المنظم الذى يجب أن يقع عبئه على الدوائر المختصة فى الجامعة العربية . وفى نشاط جامعة الحلف الأمريكى (الولايات المتحدة وجاراتها اللاتينية الجنوبية) فى هذا المضمار دروس وخبرة تصلح للاقتباس والقدوة المفيدة . وبعد ، فهذه وغيرها من أوجه العجز لا تنفى مطلقا متانة المبادىء التى تدفع العرب إلى الوحدة والتعاون الإقليمى إلى أبعد حدود التعاون . ولكنها ألوان فى القصور مرجعها فقدان الاستعداد لدى القائمين على شئون هذه المنظمة الإقليمية التى تحتل اليوم على الرغم من كل ذلك مكانة خطيرة فى الأوساط الدولية . والذين أتيح لهم الاتصال عن كثب بهيئة الأمم والوكالات الفنية العالمية يقدرون هذه الخطورة حق التقدير . هو قصور فى الاستعداد وضعف فى الوسائل والسبل لتحقيق هذا التعاون .

وإذا كان التحدى سبيل إلى الرقى والتقدم ، فإن هذا القصور — الذى هو جزء من الأزمة التى تواجه الجامعة ومعها العرب فى مختلف أقطارهم — هو نوع من التحدى . والأزمات فى جملتها أنواع من التحدى . وتاريخ التمدن كما قال المؤرخ توينبى Toynbee تحد وإجابة .

بوبورك عمر هليس

أول أبطال الحروب الصليبية :

عمـــاد الدين زنـكى

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

لم يكن الصليبيون يستطيعون أن يجدوا وقتاً أنسب من هذا الوقت الذى اختاروه للانقضاض فيه على بلاد الشام ؛ فقد كان النظام الإقطاعى يومئذ يمزق وحدة هذه البلاد ، ويوهن من قواها ؛ فلم يستطع أمراء الإقطاعات المتفرقون أن يصدوا هذا الجيش اللجب الذى بعثت به أوربا لاتهام تلك القطعة من الأرض ، فسقطت فلسطين وجزء من سوريا بين أيديهم ، وأسسوا بها إمارات صليبية هى إمارة الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ؛ وبرغم ما بذله أمراء البـــلاد مجتمعين حيناً ، ومتفرقين حيناً ، من الجهود فى حرب الصليبيين لم يستطيعوا استخلاص البلاد من أيديهم ، أو صد عدوانهم ؛ ورأينا الفرنج وقد امتدت حدودهم من ماردين وأنطاكية فى الشمال إلى مدينة العريش لدى حدود مصر . وأخذت جيوشهم تضخم وقسوتهم على من بجوارهم من العرب تشتد ، ونهبهم ما يطيقون نهبه يزيد فى كل يوم ، وأصبحوا يرتكبون كل عظيمة لا يهابون قصاصاً ولا عقوبة ، واحتملت البلاد المجاورة لهم كل ما لا يستطاع حمله من الذل والإرهاق ، ففرضت عليها الضرائب الثقيلة لا تميز فى ذلك بين مسلم ومسيحى .

تلك كانت حال البلاد عند ما ولى عماد الدين زنكى إمارة الموصل . وقد لوحظ فى اختياره لهذه الإمارة ما عرف عنه من الكياسة وحسن الإدارة ، والشجاعة فى حرب الصليبيين ؛ فرأى الأمير الجديد أنه لا يستطيع النهوض بهذا العبء ، وشمل الأمة ممزق ، ووحدتها مبعثرة ، فوضع نصب عينيه أن يوحد البلاد تحت قيادته ، ويجمع أمرها فى يديه ، حتى يحمل على عدوه حملة رجل واحد ، ويستخلص من بين براثنه الوطن المغتصب ؛ فضم إلى إمارته معظم بلاد الجزيرة ، ثم عبر الفرات واستولى على حلب وكثير من بلاد الشام ، وحاول الاستيلاء على دمشق حتى تم له وحدة البلاد ولكنه لم يوفق .

ورأى عماد الدين أن إمارته — وقد اتسعت رقعتها — فى حاجة ماسة إلى الإصلاح الشامل ؛ فنصب نفسه أباً لشعبه وسهر على إصلاح شئونه المالية ، حتى يستند إلى دعامة قوية من المال فيما صمم عليه ، وكانت البلاد قد خربت قبـــله ، لطول غارات الصليبيين عليها ، وصار كثير منها غير مزروع ، وانقطعت التجارة لتعرضها لنهب الفرنج ، فبذل زنكى جهوداً جبـاوة فى إحياء الزراعة ، وإعادة الرخاء إلى إمارته ؛ فرجع الفلاحون إلى أرضهم ، وبنيت المدن الخربة ، وعاد إلى التجارة الحياة ، كما أخذ العابثين بالنظام ، وقطاع الطرق بالشدة والقسوة ، وحكم إمارته بعين يقظى تنقل إليه عيونه كل ما يجرى فيها وفيما حوله من البلاد ، حتى لا يؤخذ على غرة . ونهض بالبـلاد نهضة ثقافية ، فكان هو ووزيره جمال الدين الجواد من حماة رجال العلم والثقافة . وأحاط نفسه بنخبة ممتازة من الرجال أغدق عليهم خيره ، ولم يكن من صفاته التلون والتغير على أصحابه ، فكانوا لذلك يخلصون له فى النصح ، ويبذلون نفوسهم فى سبيله ، وبهذا كله استطاع أن يجمع قوى هذه الإمارة ويوجهها إلى الصليبيين يحطم بها ما استطاع من قوتهم

كان الفرنج ينظرون إلى هذه الإمارة الناشئة بعين الريبة ، فما هو إلا أن صمم عمـاد الدين على لقائهم عند حصن الأثارب

سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وهو حصن قريب من حلب ، اشتد ضرره على أهلها ، فلا يكاد يمر يوم من غير غارة عليهم ، أو نهب لأموالهم . حتى جمع الفرنج فارسهم وراجلهم يريدون أن يسددوا إلى تلك الإمارة ضربة قاضية ، لا تقوم لها بعدها قائمة . ولعل الخوف من هذا الحشد الذى جمعوه قد داخل نفس بعض أصحاب العماد ؛ فأشاروا عليه بالعودة ، ولكن الحماسة المتدفقة فى صدره ملأت نفوس جنده همة وإقداماً ، فأقبلوا على أعدائهم فى إيمان وبسالة يريدون أن يظفروا بالشهادة فى سبيل الله . ولقد صبر الفريقان وأبلوا فى المعركة أشد البلاء ، ثم ظفر المسلمون بأعدائهم وانتصروا عليهم ، وانهزم الفرنج هزيمة منكرة . قتل منهم عدد ضخم ، ووقع الكثير من فرسانهم فى الأسر وأذاقهم المسلمون من بأسهم ما أدخل فى نفوس عدوهم الرهب والوهن ، فلم يستطع الفرنج لقاء عماد الدين عند ما مضى بجنده إلى قلعة حارم بالقرب من أنطاكية ، وبذلوا له نصف دخل المدينة على أن يعقد بينه وبينهم هدنة ، فأجابهم إلى ذلك ، حتى يعطى جيشه الناشئ فرصة للراحة والاستعداد ، وعاد بعد أن رأى الفرنج أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم فى حساب وصار قصارى همهم أن يحفظوا ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا فى ملك جميع البلاد.

ورأى الفرنج هذا الخطر فأرادوا تحطيمه ، ومضى ملك بيت المقدس إلى أعمال حلب يهاجمها ، وجاءت طائفة من فرنج الرها تغير عليها ، فاستقبلهم عامل حلب وهزم الأولين ، وأباد الآخرين . وأراد عماد الدين أن يثأر من عدوه ، فانقض بجنده على اللاذقية وأثخن فى الفرنج قتلا ، وأسر منهم سبعة آلاف أسير ، وكانت الغنائم أكثر من أن تحصر ، وأخذت الروح المعنوية تقوى عند المسلمين ، بينما دب الوهن والخوف إلى نفس أعدائهم ، فلم يثأروا لأنفسهم ، ومضى زنكى يكيل لهم الضربات المتلاحقة ، ويأخذ منهم القلاع والحصون ، ويسترد المدن والقرى ، ويمنح أهلها الأمان والسلام حتى ضج الفرنج ، وأرسلوا إلى ملك القسطنطينية يستصرخون به ، ويحرضونه على أن يصل لينقذ البلاد قبل أن تملك ، فأقبل على مجل ، ثم مضى إلى حلب يريد أن يستولى عليها فلم يجد فيها مطمعاً ، فذهب إلى قلعة شيزر ، ولم تكن خاضعة لزنكى ، يريد أن يجعلها قاعدة يشن منها هجومه . ولعل ملك الروم ظنها سهلة المنال ، وأن العدو اللدود زنكى لا يعنى بأمرها فحاصرها ، ونصب عليها سبعة عشر منجنيقاً ، ولكن صاحبها أرسل يستنجد بعماد الدين فجاء إليه مسرعاً بجيشه ؛ غير أن ملك الروم كان قد جمع من الجند عدداً ضخماً ؛ فرأى العماد أن يستخدم الحيلة فى هزيمته ؛ فكان يسير كل يوم إلى شيزر هو وجنده ، ويقفون بحيث يراهم الروم ، ويرسل سرايا تأخذ من ظفرت به منهم ، ثم إنه أرسل إلى ملك الروم يقول له : إنكم قد تحصنتم منى بهذه الجبال فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقى ، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم ، وإن ظفرتم بى استرحتم ، وأخذتم شيزر وغيرها . فأشار فرنج الشام على ملك الروم بلقائه ، فلم يفعل ، وقال : أتظنون أن ليس له من الجند إلا ما تريدون ؟ إنما هو يريد أن تلقوه فيجيئه من نجدات المسلمين مالا حد له . وكان زنكى يرسل إلى ملك الروم يوهمه أن قلوب الفرنج متغيرة عليه وأنهم سينفضون من حوله إن هو أقبل على الحرب ، ويرسل إلى الفرنج يخوفهم من ملك الروم ، ويقول لهم : إن ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً . فخاف كل من صاحبه ، ورحل ملك الروم عن شيزر وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها ؛ فتبع زنكى جند عدوه وظفر بالكثير منهم ، ووقع فى يده جميع ما تركه الفرنج غنيمة باردة ، وقد بهر هذا النجاح شعب عماد الدين وخلده الشعراء فى قصائدهم .

وكان أعظم ما قام به عماد الدين ، أنه حطم إمارة كاملة من إمارات الصليبيين ، تلك إمارة الرها ، ففى جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة سقطت المدينة فى يده بعد أن حاصرها حصاراً عنيفاً . وقد فكر فى أن ينزل عقوبة مخيفة بالصليبيين انتقاماً لما اقترفوه من مذابح عندما دخلوا بيت المقدس وأنطاكية وغيرها ، ولكن إنسانيته غلبت غضبه ، فلم يقتل عدا المحاربين أحداً ، ولم يأسر رجلا ولا امرأة ولا طفلا . ولم يستول على ممتلكات أحد ، وأمر جنده بإعادة ما أخذوه فعاد البلد آمناً عامراً

كان لسقوط الرها دوى عظيم فى جميع الأرجاء . وكان فتحاً عظيماً ملأ قلوب المسلمين غبطة وبهجة ، وأقبل الشعراء يهنئون عماد الدين بهذا الفتح وأكثروا وأطالوا ؛ فمن ذلك ما قاله ابن منير:

صفات مجدك لفظ جل معناه ... فلا استرد الذى أعطاكه الله

يا صارماً بيمين الله قائمه ... وفى أعالى أعادى الله حداه

أصبحت دون ملوك الأرض منفرداً ... بلا شبيه ، إذ الأملاك أشباه

فداك من حاولت مساك همته ... جهلا وقصر عن مساك مسعاه

أين الخلائف عن فتح أتيح له ... مظلل أفق الدنيا جناحاه

فتح أعاد على الإسلام بهجته ... فافتر مبسمه واهتز عطفاه

علم النفس والقضاء الجنائي

للاستاذ حسين الظريفي

ما من أحد يحضر مجلس القضاء إلا تملكه الشعور بالحرمة والكرامة اللتين تغمران جو المكان . لا فرق في ذلك بين من كان من المتقاضين أو السامعين والقاضي نفسه ، وهو على منصة القضاء ، ليمازجه نفس الشعور الذي يشعر به سواه ويدخل مع الداخلين في ذلك الجو الخاص الذي تفرضه طبيعة القضاء على كل من حضر مجلسه . فالجميع سواء في تلقي المعنى الخالد الذي يوحي به حكم القانون فيما يعمل العاملون .

إن هذه الحرمة التي كانت وما تزال ، وستبقى إلى الأبد ، وهي أقوى شعور يمتلك أنفس الناس وهم وقوف أمام عدل القانون — قد صاغت الكلمة القديمة التي تقول بأن روح القضاة من مصدر إلهي ، وجعلت قضاة القرون القديمة يعتقدون في أنفسهم القدرة على استجلاء غوامض الأشياء ، مهما تعقدت العقد ، وامتد بها الأمد ، ولم يقو عليها من أحد . ولكننا نجد اليوم أن تلك الكلمة القديمة قد أصبحت كلمة جوفاء لا تدل إلا على معنى تاريخي

أبقاك للدين والدنيا تحوطهما من لم يتوجك هذا التاج إلاهو

ترك عماد الدين زنكي حامية قوية في الرها ، وأخذ يتابع انتصاراته على الصليبيين ويستخلص من أيديهم ما بقي من إمارة الرها ، وبينما هو يحاصر إحدى القلاع اغتاله وهو نائم أحد مماليكه بإغراء أعدائه وذلك في ربيع سنة إحدى وأربعين وخمسمائة

كان زنكي إلى جانب شجاعته وبسالته سياسياً ماهراً ، يهادن عدوه ، ويلين إذا رأى ذلك ضرورة أو كان محتاجاً إلى وقت يجمع فيه شمله ، وبعد عدته فإذا رأى الفرصة مواتية انقض لا يلوي على شيء ، ويفرق بين خصومه بالحيلة والمكر حتى يأخذ كلا على حدة ، وساعده على النجاح في حروبه ما بثه من العيون في بلاد عدوه تأتيه بالأخبار وتنقل إليه حقيقة الحال .

مات عماد الدين وألقى عبء إكمال جهاده على عاتق ولده نور الدين ، وأرجو أن أوفق في كلمة أخرى إلى بيان المدى الذي بلغه الابن العظيم في تحقيق آمال والده البطل الكبير .

أحمد أحمد بدوي
مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

ولا ترمز إلا إلى ذلك الشعور الذي كان يمتلك الإنسان في زمن كان . فعصمة القضاء من الأخطاء لم تعد مما يدعيها أحد على أحد . والقضاة أنفسهم لا يدعونها على الناس ولا يرتضون أن ينسبها لهم الناس . وهم في أعماق نفوسهم يشعرون بثقل أمانة العدل المودع إليهم توزيعه على المتقاضين ، ويحققون ويدققون فيما يحكمون ، لعلمهم أنهم مثل غيرهم عرضة للخطأ ، وأنهم قد يضلون السبيل ، ويفقدون الدليل ، وينوءون بالعبء الثقيل .

والقوانين الأصولية تفصح في إجراءاتها عن مدى حفظ حقوق المتقاضين من أخطاء القضاة ، فالحكم لا يصدر إلا وله معقب ممن صدر عليه ، ومحكمة أعلى يلوذ بها ذلك المعقب لتفادي أخذه بما لم تقدمه يداه . ثم إن الحكم يعلن في جلسة علنية وعلى ملأ من الناس ، ومن حق كل سامع له أن يستعرضه ويعرضه وأن يبدي الرأي فيه ، وتلك تعليقات الفقهاء على أحكام القضاء دلائل مواثل على مدى ما يمكن أن يخطأ فيه القضاة .

والقاضي الجنائي ، كالقاضي المدني ، قد يخطئ في فهم النص وفي تطبيقه على الواقعة ، ولكنه ينفرد عن القاضي المدني بما قد يقع فيه من الخطأ في معرفة الجاني ، وفي تعيين مدى أخذه بجريرته ونوع وشدة العقاب الواجب فرضه عليه ، فتلك ميادين فسيحة لا يجري فيها القاضي المدني ، ويلزم بالجري فيها القاضي الجنائي ليتخطى الخطأ ويصيب الصواب فيما يقضي به على الأظناء .

ومما لا ريب فيه أن الشهادات المدلى بها أمام القضاة وسائر البينات المعروضة عليه ، لا تكفي وحدها دليل نفي أو إثبات ، فهناك الشخصية التي تدور عليها هذه البينات ، وهي شخصية المتهم ، ولا بد من إيضاح الخطوط الدقيقة التي تتجاذب أو تتنافر عندها تلك الأدلة مع شخصية المتهم لتقوم حجة له أو عليه ، وهذا ما يضطلع به علم النفس وما تسديه يداه . ثم هناك ماهية الجريمة ، فإنها هي الأخرى لا تقدر حق قدرها إلا بعد إيجاد نقط اتصالها بشخصية المجرم ، وذلك ما يعنى به علم النفس أيضاً ويقوى عليه . بل إن الأدلة نفسها لا بد من النظر إليها على ضوء هذا العلم قبل الأخذ بها أو طرحها ، حتى إذا ثبتت إدانة المتهم وعد مجرماً وأريد فرض العقاب عليه ، برزت أمام القاضي الجنائي مسألة خطيرة هي تعيين درجة مسئوليته عن جريمته ، وهنا تنفتح أمام القاضي الجنائي أبواب علم النفس الحديث لتفتح مغالق هذه المسؤولية في الأعماق البعيدة من نفسية المجرم .

والواقع من الأمر أن المجرم يحمل في جوانحه نفسية شاذة

معقدة قد ترسبت فيها أعقاب وراثة طويلة ، واستقرت عندها تربية منزلية واجتماعية عليلة وبيلة ، وبتفاعل هذه بتلك وتلك بهذه ، نشأت عنده الميول الإجرامية ، ثم أتيحت لها فرصة العمل بشكل اعتداء على المجتمع .

إن العمل مهما كان شكله وموضوعه لا بد أن يكون ناشئاً عن حافز داخلي ، ولابد لتقدير هذا العمل وإعطائه القيمة الحقيقية له ، وتعيين درجة مسؤولية صاحبه عنه ، من إزالة الستار عن ذلك الحافز الذي يكمن وراءه . والمجرم مهما كان مالكا لروعه وهدوئه عند مقارفته الجريمة ، لا بد أن يكون خاضعاً لتأثير خفي في نفسه ، فهو رجل شقي غير سوي ، ومقدار شقائه يجب أن يقدر بمقدار ما له من حرية إرادة تجاه ذلك العامل غير الشعوري الذي يمكن أن ندعوه بعامل الجريمة .

إن تحقيق العدالة في تطبيق الإجراءات الجنائية على الوقائع والجناة بحيث تؤدي إلى معرفتهم لا تكفي وحدها دون أن تنضم إليها العدالة في تطبيق قانون العقوبات على الجناة ، بحيث تفرض على كل جان العقوبة المؤثرة فيه ، فتنزل عنده بمنزلة الدواء وتمنحه الشفاء من علة ما فيه من الميل إلى الإجرام .

وقد يقع الفعل الذي يمنعه القانون ويعاقب عليه دون أن يؤاخذ عليه الفاعل ، وذلك فيما إذا كان في حالة يعفى فيها من العقاب ، تلك حالة تستوجب حسن تطبيق القانون ، ولا سبيل إلى حق هذا التطبيق إلا عن طريق دراسة نفسية الفاعل مضافة إلى دراسة طبيعة الظرف الذي وقع فيه الفعل .

ذلك بعض ما أمكنت الإشارة إليه في هذه الكلمة القصيرة ، وهي تفصح عن المدى الذي يصل إليه ويتغلغل فيه علم النفس من مباحث المجرم والجريمة في القوانين الإجرائية الجنائية والعقابية . ولاختلاف هذه المباحث في موضوعاتها وتشعب أصولها وفروعها ذهب علماء الفقه الجنائي لا إلى إحداث علم نفس خاص يعنى بموضوع المجرم والجريمة ، ويستقل بمباحثه عن علم النفس العام ، ولكن بتقسيم هذه المباحث إلى موضوعات ، وإفراد كل موضوع منها بعلم نفس خاص له أسلوبه وأغراضه ودوره الذي يؤديه في ساحة القضاء .

وهكذا وجد علم النفس القضائي ، وهو العلم الذي يحلل فيه القاضي الجنائي نفسيات جميع أفراد الدعوى العامة من شاك يمثل الهيئة الاجتماعية في شخصية النيابة العمومية ، ومن متهم ، ومجني عليه ، وشهود إثبات ، وشهود دفاع وخبراء ووكلاء ، ثم هو قبل ذلك وبعد ذلك يحلل نفسيته تجاه أدلة الدعوى وتجاه أفرادها ليأمن شر ما يكمن وراء شعوره من منازع ودوافع الانحياز إلى جهة التجريم أو البراءة ، فيحتفظ بحياده القضائي في كل مرحلة من مراحل الدعوى وفي كل إجراء من إجراءاتها ولا يتغفل عما يفعل .

تلك هي نظرة القاضي إلى نفسه ، وأما نظرته إلى أفراد الدعوى الآخرين ، فإنها توقفه على حالة المتهم الماثل أمامه أبرئ هو أم مسيء ، وهل يصدق هذا الشاهد أو ذاك في شهادته هذه أو تلك ، أم هو يكذب فيها عن عمد أو عن غير عمد ؟ وهل هناك مؤثرات شعورية أو غير شعورية لامست ولابست الخبراء والوكلاء فتأثروا بها عن شعور أو عن غير شعور فأعرضوا عنها أو استجابوا لها ، ومدى تأثير ذلك في أقوالهم وأعمالهم في جميع درجات التحقيق والمحاكمة ؟

وُجد علم النفس الجنائي ، وهو العلم الذي يفسر الجريمة بالتفسير العلمي ، ويحلل نفسية المجرم ، ويمد يده إلى جذور الإجرام فيه .

ووجد علم النفس القانوني ، وهو العلم الذي يضمن للقاضي حسن تطبيق نصوص القانون العقابية على الوقائع الجرمية من حيث تعيين درجة المسؤولية التي يمكن إلقاؤها على عاتق الجاني

وهكذا نجد علم النفس القضائي يسير في ركاب القاضي الجنائي من أول مراحل الدعوى إلى آخرها فيحفظه من متابة الحكم على البريء والإفراج عن المسيء ، وبين من هو الفاعل .

ونجد علم النفس الجنائي يظهر في قاعة المحاكمة عند ما ينتهي علم النفس القضائي من تعيين الفاعل فيقوم فيه بدور التحليل ورد الجريمة إلى أصولها وبواعثها لتعيين كونه مجرماً أو غير مجرم ، ثم يأتي الدور لعلم النفس القانوني ، وهو دور غير حتمي ، وفيه يضع القاضي مواد القانون في الموضع الذي أراده الشارع بالقياس إلى تعيين موقف الفاعل من الظروف المبيحة لارتكاب الفعل أو المعفية من العقاب ، ويقرر كون الفاعل مسؤولا أو غير مسؤول

تلك هي العلوم النفسية الثلاثة التي لا غنى عنها لكل قاض جنائي يهمه الاضطلاع بأعباء الدعوى العامة على الوجه الذي يحقق العدل ويريح الضمير ويزيد من ثقة الناس بالقضاء .

(بغداد) حسين الظريفي الحاسي

القبائل والقراءات

للأستاذ عبد الستار أحمد فراج

— ٤ —

يرجع السر فى أن قبيلة تميم نالت قسطا كبيراً من عناية الرواة وغلبة ذكرهم لها ومعرفة الكثير مما انفردت به إلى أنها كما قدمت فى مقال سابق كانت تسكن جانب نجد المجاور للعراق .

ومعلوم لنا أن التنافس العلمى والسبق فيه كان ميدانه البصرة والكوفة المواجهتين لصحراء العراق حيث يخرج منهما — وعلى الأخص البصرة — العلماء والمتأدبون إلى البادية ليأخذوا اللغة من أفواه أربابها الذين لم تفسدهم العجمة . وكان إليهما يقصد الراغبون فى رواية الشعر ومأثور القول وضبط اللغة وغريبها على أعلام شيوخهما كأبى عمرو وأبى عبيدة ، والأصمعى وأبى زيد ، وخلف وحماد ، والمفضل الضبى وابن الأعرابى ، وغير هؤلاء وأولئك ممن كانت لهم فى العربية وعلومها قدم راسخة فلا عجب أن كانت تميم — وبطونها كثيرة — هى أول ما يروى لها ويؤخذ عنها . يضاف إلى هذا ما قدمته فى المقال الأول من أن البصرة والكوفة قد شملتا فى مبدأ إنشائهما عددا كثيرا من تميم ، وهذه من تكملة ما خالفت فيه غيرها وبخاصة الحجازيين :

١ — « عسى » من أفعال المقاربة تستعمل تامة بمعنى أن ما وليها يعرب فاعلا لها وذلك إذا ما جاء بعدها « أن والفعل » كقول الله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » .

وتستعمل ناقصة بمعنى أن يكون لها اسم وخبر مشبهة « كان » فى العمل وذلك إذا ما جاء بعدها اسم ظاهر أو اتصل بها الضمير فيعرب اسماً لها ، وبعده « أن والفعل » فيعرب خبراً لها كقول الله تعالى « عسى الله أن يأتى بالفتح » . إلا أن أهل الحجاز لا يلحقون بعسى الضمائر ولا التأنيث . يقولون : هند عسى أن تقوم والهندان عسى أن يقوما ، والهندون عسى أن يقوموا ... ، لذلك تعتبر عندهم فى مثل هذا التركيب مكتفية بفاعلها غير محتاجة لخبر . أما التميميون فيلحقون بها التأنيث والضمائر يقولون : هند عست أن تقوم والهندان عسيا ... والهندون عسوا ... ، فتكون فى مثل تركيبهم هذا ناقصة . وإذن فتميم تستعملها كان الناقصة دائما ، وأهل الحجاز لا يجعلونها كذلك إلا فى حالة ما إذا تلاها اسم ظاهر وبعده « أن والفعل » .

والقرآن الكريم فى أغلب قراءاته لم تقع فيه الضمائر مع عسى إلا فى موضعين « قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا » و « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض » وقرأ عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب « لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن » بالإضمار فيهما على لغة تميم « عسوا أن يكونوا ... عسين أن يكن ... » .

ثم إن عسى فيها لغتان : (ا) أن تكون على وزن سمى ، (ب) أن تكون على وزن لقى . غير أن الثانى منهما هجر استعماله على إطلاقه واقتصر فيه على اتصاله بتاء الفاعل أو نون النسوة أو « نا » . ومن العجب أن أبا حيان فى البحر نقل عن أبى بكر الأذفوى[1] وغيره قولهم : إن هذا الكسر لغة الحجازيين . وقد رأينا أن ذلك لا يكون إلا حين الاتصال بالضمائر السابقة وأن الحجازيين لا يلحقونها فاذا صح ما نقله أبو حيان عن الأذفوى يكون إلحاقهم الضمائر بعسى منتقلا إليهم من تميم إذ الأصل فى الاستعمال ما قدمته نقلا عن تفسير أبى حيان نفسه وعن الأشمونى وليس استعمال قبيلة للغة قبيلة أخرى بالأمر البعيد وعلى الأخص الحجازيين الذين خالطوا كل القبائل واقتبسوا من لغاتهم ما راق لهم . ومواسم الحج وأسواق العرب المشهورة لها أكبر الأثر فى تقارب اللغات وتفهم الألفاظ والتراكيب المنتشرة بين القبائل المختلفة . قال أحمد بن فارس بعد أن تكلم فى كتابه الصاحبى على اختلاف لغات العرب ما يأتى : « وهى وإن كانت لقوم دون قوم فإنها لما انتشرت تعاورها كل » .

(١) قال ابن الجزرى فى كتابه غاية النهاية : « أذفو بضم الهمزة وسكون الذال المعجمة وفاء ، مدينة حسنة بالقرب من أسوان » . فاعل سكانها الآن ، يفضلون ما اشتهرت به قديما بالإعجام على ما ينطق به اليوم بالإهمال .

هذا وقد قرأ نافع المدنى « عسيتم » فى موضعيها السابقين بكسر السين وقرأ الباقون بفتحها .

٢ — فى اسم الإشارة المفرد المذكر والمؤنث لا تلحق به تميم اللام فى حالة البعد بل تلحق به كاف الخطاب فحسب . لكن الحجازيين يلحقون به اللام مع الكاف . فعند تميم « ذاك وتيك » للبعيد وعند الحجازيين « ذلك وتلك » ومن هذا يتبين لنا أن بعض النحاة حين يقولون . هذا للقريب ، وذاك للمتوسط وذلك للبعيد ، فيه خلط بين لغات القبائل إذ وجدوا صيغا ثلاثا فعللوا لها وفرقوا بينها . ونحن إذا لاحظنا مثلا كلمة « ذاك » فى إشارتنا نجدها أوضح فى البعد من « ذلك » لما فيها من إطالة لحرف المد وافية بالغرض . وما تزال فى كثير من قرى مصر بالصعيد تستعمل « داك » بالدال المهملة فى الإشارة البعيدة للمذكر ، و « ديك » للمؤنثة البعيدة . والواقع أن الشىء إما قريب[1] منك حسا أو معنى ، أو بعيد منك كذلك . وفى اللغة الانجليزية « this that » وفى الفرنسية « Ci la »

ومما يلحق بهذا أيضاً « هنالك وهنالك » ، فالحجازيون هم الذين يلحقون اللام وتميم لا تلحقها جريا على قاعدتها من أنها لا تلحق اللام . وكذلك أولاء يمدها الحجازيون غير أنهم يلحقون بها الكاف فقط فى حالة الإشارة إلى البعيد ، وتميم تقصرها وتلحق بها الكاف أما قبائل قيس وأسد وربيعة فإنها تقصر أولاء كتميم لكنها تلحق بها اللام[2] مع الكاف ، وقد ورد على لغتهم :

أولا لك قوى لم يكونوا أشابة وهل يعظ الضليل إلا أولا لكا

ومما يلحق بهذا أيضاً أن تميما لا تقول « هذه » فى وصل الكلام وإنما تقول « هذى » فاذا وقفوا قالوا « هذه » ، أما الحجازيون وقيس فيقولون « هذه » فى الوقف والوصل . ولم يرد فى القرآن الكريم استعمال « هذى ولا ذاك ، ولا تيك ولا هناك ، ولا أولا لك ولا أولاك » بل كل ما جاء فيه على لغة الحجازيين « إن هذه تذكرة » ، « وذلك هو الفوز العظيم » ، « تلك الرسل » ، « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ، « هنالك الولاية لله الحق » .

ويضاف إلى ما تقدم أن قبيلتى تميم وقيس تقولان « هاءنّا » بكسر الهاء وتشديد النون وغيرهما بضم ففتح بدون تشديد .

٣ — « إما » التى للتفصيل تنطقها قبائل تميم وأسد وقيس بفتح الهمزة ، فى مثل « أنت إما كريم وإما بخيل » يفتحون همزتيهما وبعض منهم يقلب ميمها الأولى مع ذلك ياء . وقد روى لرجل من عبد القيس يقال له سعد وكان عاقا لأمه :

يا ايتها أمنا شالت نعامتها أما إلى جنة أما إلى نار

وروى أيضا « ايما إلى جنة ايما إلى نار » .

فاذا استعملت تميم « أما » الشرطية المفتوحة الهمزة قلبت ميمها الدغمة الأولى ياء . ويبدو أن الشعراء فى صدر الإسلام كانوا — تظرفا منهم أو لانتشار اللغات — يقحمون لغة قبائل أخرى ليسوا منها لشهرتها بين العرب ومعرفتهم لها ، ولذا نجد عمر بن أبى ربيعة وهو حجازى يروى بيته الآتى على لغة تميم :

رأت رجلا أيما إذا الشمس عارضت فيضحى وأيما بالعشى فيخصر

٤ — ما فتىء وما يفتأ فلان يعمل كذا — من أخوات كان — تقولها تميم ما أفتأ فلان وما يفتىء فتجعله رباعيا . ولم يرد فى كتاب الله إلا قوله تعالى « تالله تفتأ تذكر يوسف » ولم يقرأ بها أحد على لغة تميم .

٥ — امل — من أخوات إن — تنطقها تميم لغن بالغين المعجمة والنون قال الفرزدق :

قفا يا صاحبى بنا لغنا نرى العرصات أو أثر الخيام

وليس فى القراءات الصحيحة هذا الاستعمال .

٦ — « الهة » : تأثرت بعض بطون تميم بالفرس ، كما تأثرت بذلك قبيلة لخم وما جاورها ، فبنو سعد بن زيد مناة من تميم ولخم ومن قاربها يبدلون الحاء هاء قال النعمان بن المنذر لرجل ذكر عنده رجلا : أردت أن تذمه فمدحته . وقال رؤبة بن العجاج وهو من بنى سعد بن زيد مناة :

---

(١) وهذا ما سار عليه ابن مالك وما رجحه الصبان على الأشمونى ، وقال إنه عزى لسيبويه .

(٢) ذكر المرحوم حفنى ناصف فى مميزات لغة العرب ، والمرحوم الرافعى فى تاريخ الأدب أن تميما كقيس وأسد وربيعة فى استعمال أولا لك وتعليلهما قد يكون من شرح التوضيح ، الذى رجح خلافه الصبان وهو ما ذكرته .

لما رأتني خلق المدوه يراق أصلاد الجبين الأجله
بعد غدائي الشباب الأبله

ومنها : لله در الغانيات المده . أراد : الأجلح والمدح .

وقد وردت ألفاظ كثيرة في كتب اللغة مترادفة وليس من فرق بينها إلا أن هذه بالحاء وتلك بالهاء مع أن الوزن والترتيب واحد . فكل ما ورد من ذلك ، إنما هو نطق القبائل التأثرين بالفرس . وفي رأيي أن جميع الألفاظ التي أبدلت حاؤها هاء يجب أن تحفظ كأثر أدبي تاريخي ولا ينبغي أن نستعملها في أساليبنا . ولذلك يجدر أن يلاحظ هذا من يقومون بوضع المعاجم فيتخلوها ويضموها إلى أصولها المتفرعة منها مشيرين إلى عدم جواز استعمالها ولا ينبغي أن يضعوها في مواد مستقلة . وأعتقد أنه لا يجوز لنا أن نقول فلان مليه حينما نريد أنه مليح . ومدهت فلانا حينما أقصد أنني مدحته ولا معنى لأن نجعل ملح أو مدح في باب الحاء فصل الميم وملهه أو مده في باب الهاء فصل الميم في معاجم اللغة وأذكر أنني كتبت في هذا الشأن بحثاً واسعاً نشر أغلبه وفيه قواعد وضوابط يمكن الاسترشاد بها لمن شاء .

٧ — العنعنة : تحرص القبائل النجدية على أن توضح الهمزة وبخاصة في أول الكلمة أو آخرها خشية أن يجور عليها بدء النطق أو الوقف فيقوون الهمزة إلى أن تكاد تقارب العين وفي بعض الأحيان ينطقونها عينا ، وهذا ما يسمى حينئذ عنعنة وقد تنسب إلى تميم وقيس أنهما تقولان في أن عن وفي أسلم عسلم وقد جاء من ذلك :

فما أبن حتى قلن يا ليت « عننا »
تراب و « عن » الأرض بالناس تخسف

ويبدو أن تميما تقلب الهمزة الأخيرة في بعض الأحيان عينا فقد ورد أن قبيلة تميم تقول في الخباء خباع .

٨ — الكشكشة والكسكسة : وكما تحرص القبائل النجدية على توضيح الهمزة تحرص كذلك على إبراز الحركة الأخيرة إذا كان في الوقوف عليها لبس وذلك في كاف المخاطبة إذ أن الوقف عليها بالسكون يجعلها تلتبس بكاف المخاطب فللفرق بينهما قلبوا كاف المؤنثة شينا ثم توسعوا في ذلك فقلبوها في حالة الوصل أيضاً . وهذا ما يسمى كشكشة ، وقد روى لقيس ابن الملوح :

فمينائش عيناها وجيدش جيدها
سوى عن عظم الساق منش دقيق

وأصله عيناك وجيدك ومنك . وفي البيت شاهد آخر وهو همزة أن التي أبدلت عينا . ومن كشكشتهم ما يكون بالحاق شين ساكنة بكاف المخاطبة حين الوقف عليها (رأيتكش). وهذه الكشكشة وتلك في قبائل تميم وقيس وأسد وربيعة . وبعض بطون هذه القبائل يجعلون بعد كاف المخاطبة أو بدلها سينا وذلك ما يسمى الكسكسة .

قال الزبيدي في مقدمة شرح القاموس: الكشكشة في ربيعة ومضر والكسكسة فيهم أيضاً . وقال الأشموني : الكشكشة في لغة تميم والكسكسة في لغة بكر من ربيعة . وفي شرح الرضي على كافية ابن الحاجب : ناس كثير من تميم وأسد يجعلون مكان كاف المؤنث شينا .

غير أننا نجد صاحب القاموس — وشارحه الزبيدي أيضاً — تارة يقول الكشكشة لتميم والكسكسة لبكر . ومرة يقول الكسكسة لغة تميم لا بكر وقيل الكسكسة لهوازن وهي من قيس ، ومرة يقول : كشكشة أسد وكسكسة ربيعة ويوافقه في ذلك أحمد بن فارس في كتابه الصاحبي . ومرة يقول الكشكشة في بني أسد أو في ربيعة . ومرة يقول إن إبدال الكاف التي للخطاب شينا لغة بني عمرو من تميم . وعلى كل حال فإن بطون تميم جمعت بين النوعين ماذلك إلا لمجاورتها كما سبق أن قدمته في مقال سابق — لمختلف هذه القبائل من أسد وقيس وربيعة .

لكن أهل اليمن يجعلون الكاف شينا مطلقا وسمى ذلك شارح القاموس « الوتم » وسماه الأستاذ هاشم عطية في كتابه الأدب العربي نقلا عن بعض المصادر « الشنشنة » والقلقشندي في صبح الأعشى ، قصر أهل اليمن على حمير ، وقصر الكاف على التي للخطاب . هذا ولم تقع في القراءات الصحيحة تلك الأنواع من قلب الكافات شينا أو سينا أو إلحاق شين أو سين . وقد سمع في قراءة شاذة : قد جعل ربش تحتش سريا

طرائف من العصر المملوكي :

صلاح الدين الصفدي المؤرخ

الأســـتاذ محمود رزق سليم

إذا عُنينا في هذا المقال بالحديث عن صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي مؤرخاً ، فليس معنى ذلك أن هذه الصفة وحدها خصوصيته التي بها امتاز ، ولأجلها ذكر وفضل بين أعلام الأدب العربي . ذلك لأنه كان كاتباً مترسلاً له منهج ، وأديباً كيساً له ذوق ، وشاعراً قادراً ذا نزعة . وهذا إلى جانب أنه من هواة التأليف ، بمعنى أنه ذو فن في اختيار موضوعاته ، وله ولوع بتلمس مادتها من بين الغرائب التي تند عادة عن الأذهان ، أو لا تفطن إليها في هوادة ويسر . وكل خصوصية من هذه ، جديرة بالدرس والبحث والتمحيص حتى تبرُز نفاستها للعيان .

والصفدي إلى جانب هذا وذاك — مكثار في نثره وشعره وتأريخه ، لا يرضى في عمله الأدبي بالوجز المقنع أو القليل النافع ، ولم يعمل قط بتلك الحكمة التي تقول : « خير الكلام ما قلّ ودلّ » . وكأنما كان يشعر أن ليس وراء الإيجاز إعجاز ، ولا غب الاقتضاب إعجاب . وأن القول إما أن يُبقي شيئاً في ضميره ، أو يعبر عن عجزه وتقصيره . وإذا كان الأديب بعد أن يبعث خواطره مقالة باهرة ، أو ينفث مشاعره قصيدة عاصرة ، يشعر أنه لم يبعث جميع ما في فؤاده ، ولم ينفث كل ما في نفسه ، وأن شيئاً في أعماقه لا يزال يقلقه ويؤرقه ، التمسنا العذر لصلاح الدين الصفدي في هذا الإكثار الذي لم يبغ من ورائه إلا أن يبرز أكثر ما يستطيع إبرازه من خفيات خواطره ، ومدخرات نفسه ، جاهداً في أن لا يبقى في طواياها بقية يقلقه بقاؤها . — وهذا هو ما ينبغي أن يكون عليه الأديب ، حتى يمتع الناس بأكثر أدبه وفنه . وفي سبيل ذلك الإمتاع يتناسون له فنه وسقطه . وإن كان الأديب الموهوب معجباً معجزاً في إكثاره أو إقلاله .

كان الصفدي إذاً مكثاراً ، طبعه في ذلك طبع الأديب الملء لا يهدأ لسانه لهجاً بالأدب وترديداً له ، وفي نفسه مشاعر تجيش ، وفي أطوائه أحاسيس تثور . وكان له مذهب في الكتابة والشعر يلتزم فيهما أموراً وقيوداً على رأسها الجناس ، فقد كان متعصباً للجناس مخالفاً في ذلك مذهب أدباء عصره الذين كانوا بالتورية ولم يشغفوا بالجناس إلا إذا خرج مخرج التورية . وكان مواماً — كما أعتقد — بمداعبة أدباء عصره ، ومن مسالكه إلى تلك المداعبة أن يسطو على شعر أحد أنداده ، فيسرق معانيه

---

٩ — المجمجة : اشتهر عن قضاعة وهي يمنية[1] من قبائل حمير أنها تقلب الياء المشددة الأخيرة جيما وذلك لضعف الياء فقلبوها حرفا قويا وهو الجيم لكن « نقيا » من دارم من تميم كثيراً ما تقلب الياء وسطا أو آخرا مشددة أو مخففة جيما تقول في أيِّل المشدد أجل وفي أزيم المخفف أزجم وفي غلامي غلامج وفي تميمي تميمج ما ذلك إلا حرصاً على إبانة الحروف ، وقد سمع في المشدد :

خالي عويف وأبو « علج » المطعمان اللحم « بالعشج »

وسمع في المخفف :

لا هم إن كنت قبلت « حجتج » فلا يزال شاحج يأتيك « بج »

ولم ترد هذه اللهجات المستكرهة في قراءة صحيحة لكتاب الله الكريم .

(للبحث بقية)

عبد الستار أحمد فراج
محرر بالمجمع اللغوي

(١) رجح جورجي زيدان في كتبه أن قضاعة من القبائل العدنانية بدون أن يبدي حجة على ترجيحه وقد فعل ذلك بعض الكتاب المحدثين أيضا . والواقع أن الاختلاف بين مؤرخي العرب قديم ولكني أرجح أنها يمنية لما يأتي :

١ — قبيلة كلب بطن من قضاعة ومعلوم أن معاوية بن أبي سفيان والأمويين كانوا يشيرون العصبية اليمنية وكانت كلب تناصر معاوية ، وقد اتفقت الكتب على أنها يمنية .

٢ — قبائل اليمن اعتادت نظام الملك والإقامة في الأراضي الخصبة ، نزحوا الى شواطىء تهامة ، ثم نزحوا منها الى أرض العراق والشام ولم يستوطنوا داخل الجزيرة اللهم إلا الأوس والخزرج الذين أقاموا بالمدينة وهي خصبة . وبطون قضاعة وأخوتها بطون كهلان انتشرت في تلك البقاع الخصبة وأسست الممالك ، وكان الملك في الشام والعراق للقضاعيين قبل الكهلانيين ، أما العدنانيون فما كانوا يعنون بالملك ولا بالاستقرار في الحضر .

أو ألفاظه ، أو يسلبه شيئاً منها ، حتى يثيره ويهيج خاطره . وفى مقدمة هؤلاء الأنداد شاعر العصر وخله الجمال بن نباتة المصرى؛ فكان من جراء ذلك كله ، أن شغل الصفدى أهل عصره وأثار ثائرة أدبائه ، بل والأدباء من بعده . فألف فيه ابن نباتة كتابه « خبز الشعير » الذى جمع فيه سرقاته من شعره . وحمل عليه ابن حجة من بعده فى خزانته ، ونبى عليه جنونه بالجناس حتى ألف فيه كتابه « جنان الجناس » . وأنشد ابن أبى حجلة المغربى يقول عن الصفدى وسرقاته موريا :

إن ابن أيبك لم ينزل سرقاته تأتى بكل قبيحة وقبيح
نسب المعانى فى النسيم لنفسه جهلا فراح كلامه فى الريح

وهكذا ترى بين قدامى النقاد من لا يرحمون الأديب ، ولا يتكيسون فى نقده ، ولا يترفقون بسقطاته ، ولا يعتذرون لغثه

على أن الصفدى ، قد قدم المعذرة لنفسه بين يدى نقاده وقرائه ، عما اجترح ، فقال فى مقدمة كتابه « ألحان السواجع » ما يلى :

« وليعذر الواقف على ما هو منحط المحل ، غير راق إلى درجة الكمال بدره ، ولم تشرق شمسه فى الحمل ؛ فإن فيه أشياء لم تهذبها الروية ، وأعجلها الارتجال ، وألقاها الفكر من رأس القلم فجاءت فيه بُنَيَّات الطريق لعدم الوصول إلى ربات الخدور والحجال وليس يعاب المرء فى يوم جبنه إذا عرفت منه الشجاعة بالأمس »

هذا كله كلام يقال عن الصفدى إذا كان الحديث عن كتابته الفنية أو شعره . أما إذا كان الحديث عن كتابته فى التاريخ ومؤلفاته فيه ، فإن مسلك الكلام يتغير ، ومجرى القول ينحرف . فالمؤرخ المكثار له جلاله وخطره . حقاً قد يسوق مثل هذا المؤرخ قارئه إلى شئ من الشك ، يدفعه إلى حسن النظر ودقة التمحيص ، كما قد يختلط فى قوله ، الثابت والمرذول ، بالنافع والمقبول . ولكنه ، حتى فى هذه يستطيع الباحث فيه والمعقب عليه أن يستنبط أموراً لها قوتها وقدرتها فى مجال الاستدلال التاريخى .

وقد برز فى العصر المملوكى جملة من كبار المؤرخين المكثرين الذين لم يقنعوا بالقليل ، فوضعوا فى تاريخ بلادهم وغيرها الموسوعات الجامعة . منها ما هو فى التاريخ السياسى العام ، ومنها ما هو فى تراجم الأعلام ، ومنها ما هو فى الخطط والآثار ، إلى غير ذلك . ويرى الطالع فى مستطرداتها ، طرائف جمة معجبة مطربة ، فى نظم البلاد وإدارتها وآدابها وتقاليدها ومزاج أهلها وروح مجتمعها . وتوالوا على هذا الغرار زمراً بعد زمر ، وجيلا إثر جيل . وقد كان من نصيب القرن الثامن الهجرى أن لمع فيه نجم الصلاح الصفدى مؤرخاً ، فضلا عن لمعانه أديباً وناقداً .

ولد الصفدى بصفد عام ٦٩٦ هـ أو ٦٩٧ هـ . وشرع منذ حداثته يتعلم صناعة الخط حتى مهر فيها . ومال إلى الأدب وسماع الحديث . ونبه فى الكتابة والنظم . وأخذ يطوف فى طلب العلم بين آفاق مصر والشام ، حتى برز بروزاً واضحاً بين أدباء البلدين ونهج من دونهم منهجه الخاص الذى أشرنا إلى طرف منه . وراسل وساجل وداعب وعقد لواء المحبة والصداقة بينه وبين كثيرين من أفذاذ جيله . واشتغل بالتأليف وجمع الأدب وبخاصة آثار معاصريه . وولى عدة مناصب منها : كتابة السر بحلب ، وتصدى للتدريس بجامع دمشق فى أخريات حياته ، وتوفى بها عام ٧٦٤ هـ .

وتنقسم مؤلفات الصفدى إلى نوعين : ١ — مؤلفات أدبية ٢ — مؤلفات تاريخية . وفى الحق أن من الصعب أن نفرق بين النوعين ؛ وذلك لأن كتبه الأدبية — وإن كانت فياضة بصنوف الشعر والنثر والنقد ، يروى فيها ويقرن وينقد وينوع ما شاءت له مجموعاته الفريدة — لم تخلص لوجه الأدب ، بل تتخللها السير والأخبار ، ويملؤها ذكر الحوادث وقص الوقائع . وكتبه التاريخية — وإن كانت فى صلب التاريخ وذكر حوادث الرجال وسرد أنبائهم — لم تخلص لوجه التاريخ ، بل يتخللها الكثير من الشعر والنثر . فهى مدد عظيم للأدب ، كما أنها معين فياض للتاريخ .

وكتبه التاريخية كلها فى تراجم الرجال . وهذا يدلنا على تأصل الروح الأدبية فيه ، لأن كتب التراجم تمت — عادة — إلى الأدب بصلة قوية كما تمتُّ للتاريخ . ولولا أن تراجمه تحتوى على سير الملوك والأمراء والقادة ومن لف لفهم من أهل السياسة والإدارة والحل والربط ، لعددناها بين الكتب الأدبية الخالصة . فهى بلا ريب منهل عذب لتاريخ الأدب ورجاله — وليس معنى

ذلك أن الرجل بعيد عن ميدان التاريخ الصراح . لا ! بل إننا لنشعر شعوراً قوياً — كلما تصفحنا مؤلفاته — بأصالة النزعة التاريخية فيه .

وأفضل ما تمتاز به مؤلفات الصفدي بنوعيها العناية بتراجم معاصريه وتسجيل نصوص من شعرهم ونثرهم مع نصوص من شعر المؤلف ونثره . وهكذا ترى أنها مصادر فريدة لأدب جيله وتاريخ رجاله وأن من كتب بعده في أخبار الرجال اعتمد عليها اعتماداً ملحوظاً عند حديثه عن الجيل المذكور . كما أنها تدلنا دلالة ملموسة على ذيوع الروح الأدبية فيه ، وعلى تمدد آفاقها التي سرحت إليها ، وذلك لكثرة ما سجل من تلك النصوص فيها ، مع تنويعها .

وأبرز موسوعات الصفدي التاريخية كتابه «الوافي بالوفيات» وامل الصفدي قرأ كتاب ابن خلكان (٦٨١ هـ) . « وفيات الأعيان » وهو جزآن في التراجم ، فرآه ضئيلا لم يف بتراجم كثير من الأعلام . فأحب أن يستدرك عليه ويعقب بما وسمه علمه . فألف لذلك كتابه « الوافي بالوفيات » وهو اسم متأثر بتسمية ابن خلكان غير أن فيه دلالة على فكرة مؤلفه .

وقد ذيل ابن شاكر الكتبي كتاب وفيات ابن خلكان ، بجزأين صغيرين في كتاب سماه « فوات الوفيات » أقل شأناً من وفيات ابن خلكان في كثير من خصائصه .

ولكننا لا ندري بالضبط أي الرجلين : الصفدي أم ابن شاكر سبقت إليه فكرة التعقيب والاستدراك . ونحن نعتقد أن الصفدي أسبق ، لأن ابن شاكر كلما ذكره الصفدي في «فواته» قال « رحمه الله » . ونذكر هنا — بهذه المناسبة — أن الرجلين ماتا في عام واحد هو (٧٦٤ هـ) . كما جاء في درر ابن حجر . غير أنه من الغريب أن ابن شاكر انتهى من تأليف « فواته » عام ٧٥٤ هـ . فهل مات الصفدي في هذا التاريخ أو قبله وغلط في ذلك ابن حجر ؟ أم أن إضافة « رحمه الله » إلى الصفدي من صنع النساخين أو الطابعين ؟ .

ومهما يكن من شيء ، فقد ألف الصفدي كتابه « الوافي » — وهو من أسبق مؤلفاته — ليفي فيه بتراجم الأعلام من كل صنف بدون تفريق بينهم في العصور أو الأمصار أو الفنون أو الحرف . وبلغت أجزاؤه نحو الخمسين ، بها من التراجم بين موجز ومطول . ومن سوء الحظ ، أن الأحداث بددت هذه الأجزاء وفرقت شملها ، ولو جمعت وطبعت لألقت أضواء ساطعة جديدة على أدب مصر والشام وتاريخهما .

وفي دار الكتب المصرية منه سبعة عشر جزءاً بالتصوير الشمسي عن مخطوطة . وبها أيضاً الجزء الأول في طبعة أنيقة ممتازة ، طبعت في الآستانة عام ١٩٣١ م بإشراف جمعية المستشرقين الألمانية .

وقد تحدث المؤلف في خطبة الكتاب عن الأمة الإسلامية ورجالها ومآثرهم . ونوه بالغرض من كتابه . واختتم بذكر أسماء من ألفوا في السيرة النبوية مع بيان مؤلفاتهم فيها .

واتبع الصفدي في إيراد التراجم الترتيب الهجائي . غير أنه ابتدأ بالمحمدين ثم الأحمدين تيمناً باسم الرسول عليه الصلاة والسلام . ويهمنا أن ننوه بشيئين : أولهما أن الصفدي قدم مؤلفه بمقدمة عظيمة القيمة جليلة النفع . وهي مثبتة في الجزء المطبوع . وقد رأيتها مطبوعة على حدة في كتيب ، وكان طبعها عام ١٩١٢ م بباريس تحت إشراف « إميل أمار » ومعها ترجمة لها وتعليقات عليها بالفرنسية . وتتكون هذه المقدمة من أحد عشر فصلا ، ويبدو أنه متأثر في بعض فصولها بما كتبه أبو الفداء في مطلع كتابه « المختصر » . وقد تحدث في الفصل الأول عن السنين التي أرخت بها العرب ، كموت كعب بن لؤي ، وعام الفيل . وانساق في خلاله إلى ذكر اشتغال العرب بالنجوم ، وخلق آدم وظهور الاسكندر ، وما قيل في ذلك . والطوفان وذي القرنين ، وما بين الرسلين من السنين إلى غير ذلك . وفي الثاني تكلم عن مادة « أرخ » من الناحية اللغوية وما اشتق منها وطريقة العرب في التعبير مؤرخين بالأيام والليالي . وفي الثالث تكلم عن كيفية كتابة التواريخ وتحديد الأيام . وفي الرابع تكلم عن « النسب » من الناحية الصرفية ، ثم بين أهميته التاريخية مشيراً إلى مفارقات طريفة وقعت للتشابه في صيغ النسب . وفي الخامس تكلم عن العلم والكنية واللقب ، وترتب كل منها على النسبة . والفصل السادس هو فصل هام في علم الإملاء ورسم الحروف . وتكلم في السابع عن مناهج المؤرخين في ترتيب التراجم أو الحوادث ، وعن طرق ضبطهم لحروف المعجم والمصطلحات الخاصة بذلك .

وفى الثامن تحدث عن لفظ « الوفاة » وما يشتق منها « والأجل » واختلاف المذاهب فى تحديده . وفى الفصل التاسع ، تكلم عن فوائد التاريخ من ناحية ضبطه للحوادث ، وأورد طرائف تاريخية ظهرت فيه ضرورة تحديد تاريخ كل حادثة . وتكلم فى العاشر عن أدب المؤرخ وما ينبغى له من علم وخلق . وفى الفصل الحادى عشر ذكر عدداً ضخما من كتب التاريخ وأسماء مؤلفيها . فهو سجل هام من هذه الناحية .

أما الشىء الثانى الذى أحببنا أن نشير إليه ، فهو أن المؤلف اختص معاصريه بسبعة أجزاء من أجزاء كتابه « الوافى » جعلها على حدة وسماها « أعيان العصر وأعوان النصر » وهو مؤلف ممتع جداً ، ترجم فيه الصفدى لمئات من أهل عصره سواء منهم من لقيه ومن لم يلقه . وأودع تراجمهم نصوصاً من أشعارهم أو نثارهم ، ندر أن تجدها فى سواه . فهو — فى نظرنا — أهم كتب التراجم لأعلام النصف الأول من القرن الثامن وإذا علمنا أن ابن حجر العسقلانى ألف كتابه القيم « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » فى أربعة أجزاء ، وأن مؤلف الصفدى « أعيان العصر » ثلاثة أمثاله ، بأن لنا قدره وعظيم أهميته . وأجزاء هذا الكتاب ، لا تزال مغتربة عن وطنها ، وفى دار الكتب المصرية منه ثلاثة أجزاء هى الثالث والسادس والسابع يقع كل منها فى مجلدين . وهى مصورة تصويراً شمسياً عن نسخة مخطوطة .

ومن أمتع كتبه التاريخية كتاب « نكت الهميان فى نكت العميان » . وهو مطبوع وذو موضوع طريف ، وهو الحديث عن العميان وبيان أحوالهم شخصية وغير شخصية ، وشرعية وغير شرعية ، وما يدور حولهم من نوادر وفكاهات وحوادث أدبية طريفة ، وترجمة النابهين منهم . ويحتوى الكتاب على عشر مقدمات ونتيجة واحدة . وفى المقدمات المذكورة جملة بحوث نافعة فى فنون العربية المختلفة وتعتبر المقدمة الأولى ذات قيمة فى فقه اللغة إذ بحث فيها عن مادة « العين والميم » وما يتصل بها من الحروف ، وما تدل عليه من المانى ، ورأى أن هذه المادة مهما اتصل بها من الحروف تدل على التستر أو نحوه . وبحث عن مادة « أعمى » . وتكلم عن تفضيل السمع على البصر أو العكس وفسر قوله تعالى : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » ، وقوله « وما يستوى الأعمى والبصير » . وتعرض للحديث الصحيح الخاص بقصة الأقرع والأبرص والأعمى ، الذين آتاهم الله ما يريدون ، فلم يشكره منهم إلا الأعمى . وتحدث عن بعض الأحكام الشرعية الخاصة بالعميان كالإمامة فى الصلاة ، ووجوب الجمعة إلى غير ذلك .

أما النتيجة فهى فى صلب التاريخ إذ ترجم فيها لنحو ثلثمائة وخمسين كفيفاً ، سواء منهم من ولد أعمى ، ومن كف بصره بعد ولادته . وأورد فى كل ترجمة الحوادث البارزة فى تاريخ صاحبها رشيئاً من شعره أو نثره إذا كان أديباً وهكذا .

ولهذا المؤلف خصوصيات نافعة فمنها أن فيه تراجم لأعلام معاصرة للصفدى وأنه جرى فى ضبط كثير من الأعلام مجرى ابن خلكان فى ضبطها ، أى أنه ضبط نطقها بالحروف ، وأنه حدد مواقع بعض الأماكن ، وأنه أودعه شيئاً من آثاره الأدبية وآثار بعض معاصريه .

وعلى نمط من هذا المؤلف ، أخرج كتابه « الشعور بالعور » وهو فى تراجم هذا الصنف من الرجال . ومنه مخطوطة بدار الكتب . وللصفدى كتاب « التذكرة الصفدية » فى أكثر من خمسين جزءاً ، فى دار الكتب منها خمسة مخطوطة ، فى خلالها فصل عن تاريخ الآداب العربية وفنونها ونشأتها ، وفصل آخر فيمن ولى دمشق من أول عهد بنى العباس إلى عصر المؤلف . وهى مليئة — إلى جانب ما تفيض به من النصوص الأدبية بأخبار الأعلام وحوادثهم .

وترى هذه الروح سارية من الصفدى فى معظم مؤلفاته ، مثل كتابه « ألحان السواجع بين البادى والراجع » وهو مخطوط بدار الكتب كذلك ، وبه أخبار وسير ووقائع بجانب ما يمج به من أنباء المراسلات ونصوصها ، مما كان بين الصفدى وأنداده .

وبعد فهذا رجل من رجال العصر المملوكى ، يضيق مقال واحد عن أن يستوعب أخباره وأسفاره ، آثرنا أن ننوه هنا بإحدى خصوصياته ، لعلها تنم عن علمه وفضله ، وأدبه ونبله .

محمود رزق سليم
مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

التفـكير بين الانسان والحيوان

للأستاذ عبد المنعم عبد العزيز المليجي

كشفت البحوث النفسية فى مجالى الإنسان والحيوان عن حقيقة قد تطامن من غرور الإنسان بعض الشىء ، تلك هى أن الحيوان لا يسلك سلوكا آليا بحتا كما ظن ديكارت الفيلسوف الفرنسى ، بل ولا يسلك سلوكا غريزيا بحتا كما اعتقد الكثيرون زمناً طويلا ، وإنما سلوكه فى كثير من المواقف ينم عن قدر من الذكاء العملى يمكنه من التصرف إزاء ما يجد من مواقف تصرفاً كفيلا بتحقيق أغراضه . فهو لا يهتدى بالفطرة وحدها التى تسم السلوك بطابع الجمود ؛ وإنما هو يعدل سلوكه ويبتكر الوسائل الجديدة ، حتى ليسهل علينا أن نلحظ — لدى الحيوانات العليا على وجه الخصوص — أنماطا من السلوك تتصف بالمرونة وتنم عن قدر من الذكاء لا يقل كثيراً عن ذكاء الأطفال فى نفس المواقف . ومن التجارب العلمية ما يثبت قدرة الحشرات على الاستفادة من التجارب الماضية فى التكييف للظروف الجديدة ، وفى هذا تكمن البذرة الأولى للذكاء .

وكلما صعدنا فى السلسلة الحيوانية زاد ذلك القدر من الذكاء العملى الذى يبلغ أقصاه لدى الكلاب والقردة . وبذلك تتلاشى الأسطورة القديمة التى تفصل فصلا حاسماً باتاً بين عالم الحيوان المحكوم بالغريزة ، وعالم الإنسان المحكوم بالعقل ، وتسفر الحقيقة التى لا مراء فيها : ألا وهى أن الكائنات الحية تنتظم سلسلة متصلة الحلقات من أسفل إلى أعلى ، منطقها التطور من الأشكال الدنيا للحياة إلى الأشكال العليا فى غير ما اختلاف حاد يكسر وحدة الحياة على ظهر الأرض ، وتضيق الشقة الفاصلة بين الإنسان والحيوان . فكلاهما يسلك سلوكا غريزيا وكلاهما يسلك سلوكا عقلياً رائده الذكاء . فما الفارق إذن بين ذكاء النوعين ؟

الإنسان من حيث السلوك العقلى فى قمة الحيوانات ؛ فهو أقدرها على السلوك سلوكا عقليا . هو فى حياته يصارع الطبيعة وأحداثها ، لا بحكم الفطرة فحسب ، بل يفوق الحيوان قدرة على استغلال ذكائه فى صراعه هذا مع الطبيعة . تقسو عليه بردها وقيظها وأمطارها فيهرع إلى الأشجار يتخذ من أغصانها بيوتاً . تتوالى عليه فصول السنة بمضها فيه الخصب ووفرة الغذاء ، وبعضها جدب لاطعام فيه ، فيبتكر الوسائل يتجنب بها المجاعة ، ويهتدى بعد تدبر وإعمال روية إلى ما نعرفه من مختلف أساليب خزن المياه وحفظ الأطعمة ، وعدم الاكتفاء بما تدر الأرض بطبيعتها ؛ فيزرع ويستغل كامن قواها . يخشى هجمات الوحوش الضارية ، وعدوان القبائل المادية ؛ فيتخذ المدة لذلك بصنع الأسلحة مستخدماً كل ما تقع عليه يده من أحجار وأشجار ومعادن . وهو إذ يفعل ذلك يهتدى بذكائه ، بتفكيره العملى الذى يتطور مع الزمن تطوراً يكشف عنه ما لاحظه العلماء المنقبون عن آثار العصور البائدة من تطور الآلة الإنسانية من الآلة الحجرية القديمة إلى الحجرية الحديثة إلى المعدنية ؛ والأسلحة من الأحجار إلى النبال فالخناجر والسيوف فالبنادق حتى القنبلة الذرية فى العصر الحديث .

وهكذا فى كل ميدان من ميادين الحياة يستخدم الإنسان تفكيره وسيلة لتحقيق أغراضه ، وهذا هو الأصل فى التفكير: وظيفة حيوية عملية تعين الحيوان على الصمود فى الحرب الخالدة بينه وبين قوى العالم الطبيعى التى لا تعرف التراجع ، وذلك أن الفطرة وحدها لا تكفل انتصاره .

بيد أن اختلاف التفكير الإنسانى عن التفكير الحيوانى ليس اختلافاً فى المرتبة أو الكمية فحسب ؛ بل هو اختلاف فى النوع أو الكمية أيضاً . فتفكير الحيوان عملى كله ، هو برمته وسيلة إلى العمل ، إلى الحياة والبقاء . لا يستغل الحيوان قدرته العقلية المتواضعة إلا فى إرضاء مطالبه الغريزية : من الاغتذاء ، والاحتماء ، ورعاية الصغار ، والتناسل الخ . أما الإنسان فبعد إرضاء مطالبه الغريزية يستغل قواه العقلية فى الكشف عن أسرار ما يدركه من ظواهر الكون والبحث عن علل الحوادث التى تقع تحت ناظريه ، وتفسير التغيرات التى تطرأ على مختلف الكائنات . ولا شك أن الحيوان كالإنسان فطر على حب الاستطلاع لكل جديد تجنباً لما قد ينطوى عليه من خطر ، أو طمعاً فيما قد يدره من خير ونعمة ؛ ولكن الإنسان يتجاوز هذه الحدود النفعية فيستطلع أحياناً من أجل المعرفة فى ذاتها ، ويجنى من وراء ذلك لذة لا تقل عن اللذات الجسدية التى يجنيها من وراء إشباع ميوله الغريزية الأخرى .

لذلك كان الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يفكر أحياناً من أجل التفكير فى ذاته ، بل والذى يجاوز ذلك إلى التفكير فى التفكير : يحصى أساليبه ، ويفتش عن مصادره ، ويسجل

من وحي السودان :

أشواق النيل !

(إلى أخي المجاهد في الجنوب !)

أخي يا أخي ... يا أخي بالجنوب
دماه تراقُ وشعبٌ يُهان
لقد صرخ النيلُ والشاطئان
متى يا أخي ينعم التوأمان
ففي قلب مصر ... أخي رغبتان
جلاء الدخيل ... ومجد الجنوب

أخي يا أخي طال عهد الجمود
وضلت بنا خادعات الوعود
وهل يصدق المهد قلبٌ حقود !
يدسُّ مع الوعد سُمَّ الوعيد
أخي يا أخي آن حطم القيود
وحان الجلاء . وبعث الجنوب

أخي موكب الدهر ماض يسير
وويلٌ لمن لم يجدّ السير
ليلحق بالركب قبل المصير
وسيّان هام العلا . والقبور !
لمن يا أخي مل عيش الأسير
فثر . يا أخي . يا أخي بالجنوب .

حسين محمود البشبيشي

أخطاءه ، ويتقب عن أسباب الوقوع في الخطأ ، ويعدد السبل الموصلة إلى المعرفة . والإنسان عند ما يفكر هذا النوع من التفكير نقول إنه يفكر تفكيراً نظرياً لا غرض له إلا المعرفة . على أن هذه المعرفة تعود عليه بالنفع العملي وتزوده بأمتن الأسلحة التي تكفل له النصر في معركة الحياة على قوى الطبيعة الغاشمة التي لا تبالي بغير المضي في الطريق المرسوم وفق قوانين جامدة لا تتزحزح ولا تتزعزع . وسأحاول في مقال قادم أن أكشف عن فارق جوهري آخر هو السر في طفرة الإنسان وتربعه على عرش الكائنات الحية ، وتمرده على الطبيعة تمرداً بلغ به حد استغلال قواها لمصلحته والسيطرة عليها بفهم أسرارها وفضح خباياها .

عبد المنعم الطيبي

أيها العابرون*

عبرت والخضم يصخب والمو ... ج مخيف يطبق الأسماعا
ومضت تمخر العباب وفي الأف ... ق أعاصير تستفز القلاعا
موجة إثر موجة تترى ... كجبال قد اقتلعن اقتلاعا
وعلى الفلك ساهرون ولكن ... لا يطيقون في الخضم دفاعا
أيها العابرون كيف أمنتم ... ثورة البحر فاندفعتم سراعا
دون زاد وفي الطريق خطوب ... جامحات فهل حملتم متاعا
ثورة اليم لا تطاق إذا لم ... تحمل الفلك عدة وشراعا
وقلوباً من الحديد تشظت ... فاكتسحت قوة وجلّت صراعا
لا نفوساً إذا الأعاصير هبت ... فزعت خيفة وطارت شعاعا

أين ربانك يا فلك وأيان المصير
وعلى الدفة من لا يدرك الأمر الخطير
زخر اليم للموج اصطخاب وهدير
فاسبحي كالطير أو عودي كما شاء القدر
إن دنيا البحر ، يا فلك ، عناء وخطر

وانبري من مجاهل الغيب صوت ... هادىء النبر خافت الألحان
هاتف مثلما تموج على الثغر ... تسابيح شاعر حيران
أيها العابرون قد عسعس الليل ثقيل الخطا على الأجفان
والخضم الرهيب كالرعد في الأفق ، وكالنار في فم البركان
وطواغي الأمواج تعبث في البحـ ... ـر كخيل طليقة الأرسان
وأرى الفلك لا تطيق اتزانا ... بين موج معربد غضبان
سخر اليم من بقايا شراع ... يتلاشى كقبضة من دخان
ومسامير خاويات ولوح ... كشموع تلح في الذوبان
وإذا ما استبد بالفلك موج ... أفلت الحبل من يد الربان

أتراها وهي بين الموج تطفو وتعوم
وعلى الأفق أعاصير ورعد وغيوم
ونسور تتلظى كالمنايا وتحوم
تعبر اليم وتطوي موجة البحر الغشوم ؟
أم تراها تتوارى بين طيات العدم
فينال الحوت ما شاء ويتاش الرخم ؟

ابراهيم الوائلي

(*) من ديوان : بحر وضباب .

ألحان الساكن الثائر

بين المآسي ساكن وسنان
يبدو عليه الصبر والإيمان
وقد يضاعف الأسى الكتمان
ورب كتمان هو البيان

معذبٌ مستسلمٌ لما به
همومه تصهر من شبابه
وهْو يطيل الصمت غير آبه ..
كأنه ينعم في عذابه !

يقول مفصحاً لسان حاله :
كذلك الزمان مع رجاله ..
وما حلا أو مرَّ من فعاله ..
لا بدَّ للمرء من احتماله !

تحسبه — يا صاح — في سُباتِ
فلا تثر أيّما التفات
لفارق في لجة الحياة
يستعرض الأهوال في ثبات !

لا يشتكي لصاحب حميم ..
ولا يئنُّ وهْو في الجحيم ..
فلا ترى من سرّه المكتوم ..
إذا اختبرته سوى الوجوم !

تثورُ في هيكله الرزين
جحافلٌ شتّى من الشجون
فيلتقي الشدّة بالتهوين
ويحجبُ الثورة بالسكون !

لم تغتمض في راحة عيناهُ
فكلها متاعبُ دنياهُ
إذا سعى أخفق في مسعاهُ
وإن أوى نبا به مأواه !

عامر بدر

عدد « الرسالة »

الهجري الممتاز

يصدر بعون الله

في اليوم الثالث من يناير ١٩٤٩

مدبجاً بأقلام

أعلام البيان في العالم العربي

حافلاً كعادته

بالشهي الطلي من ثمار الثقافة الاسلامية الصحيحة

نظرات فى كتـــاب
الفكر الاجتماعى
للأستاذ كامل كيلانى

— ١ —

فى فترة عارضة من فترات السآمة والملل ، أعقبت ساعات جاهدة من العمل ، فتحت هذا الكتاب كما اتفق ، فكان أول ما وقعت عليه عيناى تلك الصورة التى قدمها المؤلف ، حين عرض لعبادة العرب للأشجار والحجارة[1] ، وهى تمثل للقارىء لونا عجيباً من أخيلتهم ، وترسم صورة رائعة مما استقر فى أخلادهم ، وتجلو بعض ما كانوا يتناقلونه من الأساطير عن معبوداتهم « العزى » التى كانوا يتخيلونها شيطانة ثائرة ، تبدو — لمن يراها فى صورة حبشية غضبى — ، تأتى ثلاث ثمرات (شجرات من أشجار الطلح) نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، وهى تصرف بأنيابها (تسحقها وتحك بعضها ببعض حتى يسمع لها صوت) .

وما كدت أبلغ قول المؤلف المفضال :

« وكذلك كانت عبادتهم لذات أنواط ، فقد اعتقدوا أن معبوداتهم الحية كانت تحل تلك الأشجار والأحجار » .

حتى طويت الكتاب ، على عادتى كلما بلغت من المطالعة فترة يحسن الوقوف عندها ، والتفرغ لها . وسرعان ما استغرقنى التفكير ، وأسلمنى التأمل إلى عوالم فسيحة من الحقائق التى تفوق الخيال فى غرابتها ، ولم أتمالك أن رجعت القهقرى حتى بلغت العصر الجاهلى الذى طالما عشت فيه ، تارة فى صحبة مؤرخى العرب والفرنجة ، وتارات فى صحبة المبدعين من الشعراء والكتاب ويا طالما نعمت بالتجوال فى ذلك العصر الفار ، وأنست بارتياد روائعه فى رفاقة أستاذى « المعرى » . وطالما انتفعت بإشاراته فى رسالة الغفران وما إليها من بديع آثاره . كما انتفعت بصحبة العلامة « دوزى » فى ارتياد كثير من تلك المجاهل السحيقة ، حين ترجمت طائفة من فصوله الممتعة التى أودعتها كتاب : « ملوك الطوائف ونظرات فى تاريخ الإسلام » .

(١) أنظر صفحة ١٥١ من الكتاب .

فلا عجب إذا عاودنى الحنين والشوق إلى استئناف الدرس حين طالعت تلك الفقرات :

« وذو الشوق القديم — وإن تعزى —
مشوق حين يلقى العاشقينا »

ولا عجب إذا توائبت الخواطر ، وتدافعت الذكريات ، فلم أدر أيها أثبت وأيها أدع ، ولا عجب إذا نسيت أن على أن أكتب مقدمة موجزة فى بضع صفحات ، لا دائرة معارف فى عشرات من الأسفار المطولات :

ورأيتنى أستعرض — عن غير قصد — طائفة من أمثال هذه الأسطورة العربية الشائقة التى أثبتها المؤلف الفضال فى كتابه النفيس ، متمنياً أن يتعاون معه طائفة من أعلام القصة لاستغلال أمثال هذه الأسطورة العربية البارعة ، بعد أن تظاهرهم طائفة من كرام الباحثين على درس هذا التراث الحافل ، وتعرف رموزه وحل معمياته ، وتجلية ما غمض من خوافيه وأسراره ، وأن يُعنوا بإحيائه كما عنى غيرهم من شعراء الغرب وأعلام كتابه وباحثيه ، وأفذاذ علمائه وقصاصيه ، باستغلال ما ظفروا به من الأساطير الإغريقية وما إليها من أساطير الأمم القديمة .

ولم أتمالك أن شكرت للمؤلف عنايته المحمودة بهذا اللون الفكرى البديع . ورأيتنى أجرى على عادتى فى التعليق على هامش ما أقرأ من نفائس الكتب .

وانثالت المعانى والصور وتتابعت ، حتى خشيت — كما أسلفت — أن تدفعنى إلى تأليف سفر ضخم . فاجتزأت بإثبات بعض ما قاله « المعرى » فى هذه الشجرة المحظوظة التى أطلقوا عليها « ذات أنواط » ، فقد أشار إليها فى رسالة الغفران إشارة نافعة حين عرض للحديث عن أشجار الفردوس فقال :

« وذات أنواط شجرة كانوا يعظمونها فى الجاهلية . وقد روى أن بعض الناس قال : يا رسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط » .

وهنا قبس « المعرى » قول أحد الشعراء :

« لنا الهيمن يكفينا أعادينا كما رفضنا إليه ذات أنواط »

وفى بعض هذا دليل على ما بلغته ذات أنواط من خطر الشأن ورفعة المنزلة .

وقد شغل المعرى — فى أكثر من موضع من نفائس

كتبه — بهذه الشجرة ، التي ظفرت — على حقارتها — بمثل هذا التكريم ، وأفردها الحظ بما لم يظفر به غيرها من إجلال وتعظيم ، فأضفى عليها عبادها من القداسة هالة باهرة ، فتنتهم وسحرت ألبابهم واستعبدتهم . فأكبروا من أمرها ما صغر ، وعجدوا من شأنها ما حقر ، ولم يكتفوا بعبادتها في جاهليتهم ، فراحوا يكاثرون الرسول صلى الله عليه وسلم بها ، ويطالبون إليه أن يهيىء لهم شجرة تماثلها وتسامیها في قداستها وشرفها .

وهكذا أدركها الحظ — على قمتها من الثمر — كما يدرك بعض الأغمار التافهين من الناس ، فيضفي عليهم ألواناً من النباهة والرفعة ، على ما ركب في طباعهم من العقم والحقارة والعجز .

وفي هذا يقول المعري :

« والجد يدرك أقواماً فيرفعهم وقد ينال إلى أن يُسْعِد الحجرا
وشرفت ذات أنواط قبـــائلها
ولم تبالي — على علاتها — الشجرا »

وكانت « ذات أنواط » سمرة (شجرة طلح) ، لا تكاد تختلف عن تلك السُمرات الشائكة الثلاث التي كان الجاهليون يتخيلون معبودتهم « العزى » قادمة عليها في صورة حبشية .

ولا تختلف عن السمرات التي أشار إليها امرؤالقيس في معلقته حين قال :

« كأني غداة البين ، يوم ترحلوا لدى سمرات الحي ناقف حنظل »

وشجر الطلح معروف ، وقد أشار إليه المرحوم شوقي بك حين قال :

« يا نائح الطلح أشباه عوادينا
نأسى لواديك ؟ أم نأسى لوادينا ؟ »

كما أشار إليه « المعري » ونبه إلى إجداب هذا الشجر ، وعقمه من الثمر ، في قوله :

« وأبغضت فيك النخل ، والنخل يانع
وأعجبني - من حبك — الطلح والضال »

وقد ألف العرب أن يطلقوا على شجرة الطلح « أم غيلان » وإلى هذه الكنية أشار « المعري » في تهكم بارع :

« سل أم غيلان الصموت عن ابنها
وبنات أوبر ، من أبوها أوبر ؟ »

— ٢ —

والطلح — فيما يعلم القارىء — شجر عظام من شجر العضاه ، الذي لا يثمر غير الشوك ، ترعاه الإبل إذا أعوزها الزاد ، فلا تكاد تستسيغه إلا مضطرة ، وقلما تسلم من غصصه وعلله . فلا عجب إذا اتخذوه رمزاً للشر ، وصاغوا من « السُمرة » لفظ : « السمرْمرة » : لقب الغول ، وجعلوا من شجرها مزاراً لتلك الشيطانة الحبشية الغضبى التي تقدم السمرات الثلاث — كما تمثلها الأسطورة — ناشفة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، تحرُق الأرض (تحك أنيابها حتى يسمع لها صريف) من شدة الغيظ .

فلا عجب إذا استخرج العرب — من هذا الشجر وثمره — ألفاظاً تدل على طائفة من معاني الشر ، فاشتقوا الطلاح (الفساد) من الطلح ، كما اشتقوا من ثمره الشائك ألفاظاً منطوية على طائفة من معاني السحر والإفك والكذب والأذية(١) .

فإذا سأل القارىء : «ولماذا خصوا هذه السمرة بهذا اللقب؟ وكيف أطلقوا عليها : « ذات أنواط » ؟ همس في أذنه بعض مؤرخي العرب ، ومنهم « ابن الأثير » .

« إنها سميت كذلك لأن المشركين كانوا ينوطون بها سلاحهم (يعلقونه) ويعكفون حولها » .

وربما همس في أذنه بعض الباحثين : « إنهم أطلقوا عليها ذلك اللقب ، لما تميزت به مما كان يتدلى من أغصانها الكبيرة من أنواط » .

والنوط — كما يعلم القارىء — هو القفة الصغيرة التي تحمل ثمار هذه الشجرة ، السامقة العقيم .

— ٣ —

وهكذا أسلمتني هذه الأسطر القلائل إلى طائفة من التأملات أزاحت ما كان مستولياً على نفسي من السآمة والملل ، ونفضت عني غبار الفتور والكسل ، وأعادت إلى النشاط ، فأقبلت على الكتاب أقرؤه من أول سطوره ، متنقلا بين فصوله الشائقة ، من صفحة إلى صفحة ، حتى انتهيت إلى خاتمته ، وأنا شديد الشوق إلى الاستزادة من حديث هذا الباحث الموفق المثمر الذي لا يمل البحث ، ولا يمل قارئه من متابعته في عوالمه الفسيحة .

ورأيت المؤلف يتنقل بين مجاهل التواريخ التي طويت على مر الأزمان ، وعفى عليها تطاول الأمد ذيول النسيان ، فلم يبق

(١) يقال أعضه الرجل : جاء بالإفك والباطل : ساحر وحية عاضه : تقتل من ساعتها إذا نهشت .

الدهر — من آياتها وحقائقها وأحداثها — إلا ظنوناً وأحداساً وأخيلة ، لا تكاد تثبت على الاختبار والبحث . ثم لا يزال مؤلفنا ينتقل في فصوله الشائقة حتى يبلغ المدى من رحلته الفكرية ، وينتهي إلى عصرنا الحافل بألوان من الحقائق ، تكاد - لغرابتها - تفوق عجائب الخيال .

— ٤ —

وهكذا صحبت المؤلف وهو يتابع سير الإنسان ، منذ أقدم العصور ، حين كان يقيم مع قبيلته بين الأشجار ، وفي الكهوف وقد اكتسى جسمه بشعر كث يصارع الوحوش ويطاردها في الأدغال ، ويقتات بالبذور ، ويعيش على لحوم فريسته التي يمزقها بأظافره ويقطعها بأسنانه ، كما يفعل أضرابه من الوحوش .

ثم لا يزال المؤلف يساير الإنسان القديم مرتقياً به ، في أسلوب تصويري جذاب حتى يصل إلى العاصر الحاضر ، في قرابة مائتين من الصفحات الحافلة بالملاحظات والتوجيهات ، بعد أن ضمن التوفيق فيما قبسه وتخيره من الكتب : عربية وأجنبية ، وفيما عرض له من تحليل ومناقشة ، وتأليف بين أشتاتها ، وتمحيص لرواياتها ، منذ سحب الإنسان الأول إلى أن أبلغ العصر الحاضر : عصر الآلات والمناجم والبخار والكهرباء والطائرات والسينما والراديو والتلفزيون . ولم ينسه ذلك المعرض الحاشد — الذي افتن في إقامته وتنسيقه — ما وراء تلك الصور المادية من السجايا والأخلاق الإنسانية ونشأة العادات ، وأثر الأديان والشرائع والقوانين في الأفراد والجماعات ، وأي حافز دفع الإنسان إلى منازعة الوحوش في الغابات ، وأي قوة أمكنته من قهرها والتغلب عليها ، بفضل ما منحه الله من عقل وتفكير . وكيف استقبل الإنسان فجر الدينة وهو — فيما يقول المؤلف — : « يتقدم ببطء من جمع الأطعمة إلى الصيد ، ومن الجماعة المشتتة إلى القبيلة ومن ثم يتطور فيشكل نظاما اجتماعيا ، ويوزع الوظائف بين الأفراد . كما لم ينسه أن يعرض لنهضات « مصر » و « بابل » و « فلسطين » و « الهند » و « الصين » و « اليونان » و « الفرس » و « رومة » .

— ٥ —

وقد ألم المؤلف — على ذلك — إلماما بارعة بأنواع الزواج في الجاهلية ، وقبس طائفة من الأمثلة تبين اختلاف نظمها وتباين عاداتها ولم يفته أن ينبه إلى ما ألفته بعض قبائل العرب في زمن الجاهلية « من نسبة أولادهم إلى أمهاتهم قبل أن ينهاهم الإسلام ، وكان نهيه صريحاً في قوله تعالى : « ادعوهم لآبائهم ، هو أقسط عند الله » .

وهي — فيما رأى ويرى غيري من الباحثين — عادة جرى عليها الروم في قديم الزمان ، واهلهم كانوا أسبق إليها من العرب .

وقد أشار المعري في لزومياته إلى هذه العادة ، إشارة ساخرة قاسية ، فقال .

« ولحب الصحيح آثرت الرو م انتساب الفتى إلى أمهاته
جهلوا من أبوه ، إلا ظنونا وطلا الوحش لاحق بمهاته »

— ٦ —

أما بعد :

فقد كانت مفاجأة سعيدة ، حين تفضل مؤلف هذا الكتاب النفيس فعهد إلى بتقديمه ، ولم يكن عمر التعارف بيننا يزيد على دقائق معدودة ، كانت كافية للتآلف . ولا غرو في ذلك فإن الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .

وهكذا أغنت اللحظات القليلة عن العشرة الطويلة ، وكانت — على قصرها — كافية لانسجام روحينا ، فخيل إلينا أننا تعارفنا منذ النشأة الأولى وكان من ثمرات هذا اللقاء العارض أن عرفت شغف المؤلف بالبحث والاطلاع ، وعنايته بتتبع آثار « ابن النديم » صاحب الفهرست والترجمة له في مجلة المجمع العلمي العربي(١) . وتوفره على درس الدعوة الإسماعيلية في رسائل إخوان الصفا(٢) وإقباله على كتابة فصول النقد وأعمال البنوك في كتاب : النظام الاقتصادي في فلسطين(٣) .

وكتابه : التطور الاجتماعي والاقتصادي لفلسطين العربية(٤)

وهكذا رأيت مؤلفنا ينتقل في بحوثه النافعة ، من عالم الاقتصاد إلى عالم الأدب ، كما ينتقل في حياته اليومية بين بنك الأمة العربية ومكتبته الضخمة الحافلة بألوان الثقافة والأدب ، فيذكرنا قول ابن المقفع :

---

(١) انظر المجلد الصادر سنة ١٩٣١

(٢) انظر مجلة الجامعة الأمريكية الصادرة ببيروت سنة ١٩٣٣

(٣) أصدرته الجامعة الأمريكية ١٩٣٩

(٤) صدر عام ١٩٤٧ في القدس

« أمران يحتاج إليهما من يحتاج إلى الحياة : المال والأدب »

ولا ريب أن الأمم — كالأفراد — لا غنى لها عن بناء نهضتها على أساس متين ، يرتفع بناؤه على هاتين الدعامتين .

— ٧ —

وكان من ثمرات هذا اللقاء السعيد أن أتاح لى الظفر بقراءة هذه الخلاصة الممتعة التى تأنق مؤلفها فى عرض تاريخ الحضارة الإنسانية عرضاً تصويرياً أخاذاً ، يخيل إلى قارئه أنه يشهد شريطاً من أبدع ما أخرجته السينما فى العصر الحديث .

وقد علم القارىء مما أسلفت أننى لم أكد أقلب صفحات كتابه حتى رأيت ما تفتحت نفسى له ، وشجعنى على البدء بقراءته من أوله ، فلم تنته الجلسة حتى أتممته ، وأنا شديد الأسف على انتهائه ، وبودى لو امتد هذا السفر التاريخى الحافل فى أضعاف صفحاته ، ليؤدى إلى رواد الثقافة أضعاف فائدته ، ويحقق لهم الكثير مما تتوق إليه نفوسهم الظامئة إلى أمثال هذه البحوث ، التى وفق أصحابها إلى جمع أشتات المعارف ، وأحسنوا عرضها ، بعد أن أحسنوا استيعابها وفهمها .

— ٨ —

وازدحمت الخواطر فى ذهنى — كما أسلفت — وتواثبت التعليقات ، كلما انتقلت من صفحة إلى صفحة ، وخشيت أن أعاود قراءة الكتاب مرة أخرى فيضطرنى ذلك إلى الوقوف عند كل فكرة طريفة — وما أكثر ما يحويه من طريف الأفكار — وربما اقتضانى ذلك أن أتوسع فى الشرح والتعليق فتصبح مقدمة الكتاب أضعاف حجمه .

ورأيت أن مؤلف الكتاب كان قادراً على الاضطلاع بمفرده بهذا العبء الثقافى التوجيهى كله ، لو أمكنته فسحة من وقته المزدحم بما ينوء به من شواغل الأعمال ، وما يضطلع به من تبعات ثقال ولكنها الظروف القاهرة ، أعجلت المؤلف كما أعجلتنى ولعله قصد إلى الإيجاز قصداً ليحقق لقارئه فى صفحات قليلة ما تستوعبه المطولات المستفيدة ، وهو غرض نبيل ، والحاجة إلى المختصرات مطلب جليل ، لا يقل عن الحاجة إلى المطولات . وربما زاد عليها فى بدء عصور النهضات ، ترغيب الزاهدين فى القراءة ، وتعبيد ما توعر من طرائقها أمامهم .

وحسناً صنع المؤلف حين عنى بتوجيه قارئه إلى أمهات الكتب ليحبب إليه البحث ، بعد أن عنى بتوجيهه وإرشاده وفتح آفاق جديدة له .

وأما أجدر المؤلفين بالأخذ بهذا المنهج ، فهو من الأهداف النافعة ، يتوخاها طالبو الإصلاح فى مستهل النهضات ، تستقبلها الأمم التى طال عهدها بالنوم ، وآن لها أن تنفض عنها غبار الخمول

— ٩ —

أكرر القول : إننى وجدت فى كل صفحة من صفحات الكتاب بابا للمناقشة وجالا للأخذ والرد والتعليق ، ومثاراً للخلاف حينا ، والموافقة أحيانا .

وهذه أول مزايا الكتاب المثمر الناجح وحسبى دليلا على نفاسة ما أقرأ ، أن يثير فى نفسى ألوانا من البحث والتمحيص ، ويحفزنى إلى ارتياد مختلف الميادين الفكرية التى صرفتنى عنها عوادى الزمن وشواغله .

وقد كان من حسن حظ المؤلف والقارىء أن يتضافر على كاتب المقدمة ضيق الوقت ، وزحمة العمل ، ورعكة الصحة ، وقلة الصفحات المخصصة للتصدير ، فتعجله كل هذه الأسباب مجتمعة عن التفصيل والإسهاب اللذين تحاشاهما مؤلف الكتاب .

وكان من حسنات عصر السرعة الذى نعيش فيه ، وما أوجبته المطبعة التى لا تعرف التريث والبطء ، ولا تبالى الوعكة ولا المرض ولا تحفل الشواغل وزحمة العمل ، أن تمد المقدمة فى حيز من الصفحات ثابت ممدود ، وزمن من الساعات مؤقت محدود . ولولا ذلك لامتد بى نفس القول كما امتد بـ « المعرى » منذ ألف عام ، حين أجاب عن رسالة « ابن القارح » برسالة الغفران ، فى أضعاف حجمها ، وكما امتد نفس القول بالأمير « شكيب أرسلان » حين تصدى لتقديم كتاب « حاضر العالم الإسلامى » ، فزادت صفحات مقدمته على مقدمة « ابن خلدون » ، وتجاوزت شروحه وتعليقاته أضعاف حجم الرسالة التى عهد إليه مترجمها أن يقدمها .

ولا عجب فى ذلك ، فإن نفس القول إذا مددته امتد ، وتداعى المعانى لا يعرف الوقوف عند حد :

« والفكر حبل متى يمسك على طرف

مفـــه ، ينط بالثريا ذلك الطرف

والعقل كالبحر ، ما غيضت غواربه شيئاً ، ومنه بنو الأيام تغترف »

كامل كيلانى

الأدب والفن في أسبوع

الأستاذ عباس خضر

في مؤتمر المجمع اللغوي

احتفل مجمع فؤاد الأول للغة العربية يوم الثلاثاء الماضي بافتتاح مؤتمره السنوي ، وهو الذي يحضره الأعضاء الأجانب ويستمر نحو شهرين ، واحتفى في هذا الحفل باستقبال عضوين جديدين هما الأستاذ محمد رضا الشبيبي والأستاذ خليل السكاكيني .

افتتح الاجتماع معالي الأستاذ أحمد لطفي السيد باشا رئيس المجمع بكلمة حيى فيها الأعضاء ورحب بالزميلين الجديدين ، ومما قاله أن المجمع يعالج مشكلات اللغة وقضاياها باعتباره هيئة علمية بحتة ليس من شأنها أن تنفذ قراراتها إلا ما يكون من عرضها على الهيئات العلمية ونشرها في المطبوعات والمجلات ، وأبدى معاليه السرور بما يلاحظ في المجتمع العربي من الدلائل على الرغبة في تقبل أعمال المجمع بقبول حسن .

ثم ألقى الأستاذ شوقي أمين ، بالنيابة عن كاتم سر المجمع ، كلمة أجمل فيها ما قام به المجمع من أعمال في العام الماضي وبرنامج العمل في هذا المؤتمر .

وبعد ذلك وقف الأستاذ عباس محمود العقاد فألقى كلمته في استقبال الأستاذ الشبيبي فقال : إنه يدخل هذا المجمع من أكثر من باب واحد ، لأنه شاعر ناقد باحث لغوي ناشر للعلم واللغة .

وعند ما تكلم عن شعره اكتفى بالعرض المجمل ، فوصفه بفصاحة اللفظ ونصاعة المعنى وسلامة العبارة ، وأنه ينظم الشعر في أغراض شتى ولا يقصره على غرض واحد ، وألقى أمثلة من شعره بدأها بأبيات قال إنها من قصيدة نونية

وقال الأستاذ العقاد : إن الأستاذ الشبيبي أعانه البحث الطويل في الأدب واللغة على تمييز الكلام وتصحيح النقد ، وأورد ما قال إنه جاء في مقدمته لديوان الحبوبي تعقيباً على مذهب بقراط وابن خلدون في تكوين الطبائع والأخلاق ، وهو « والذي أراه أن لاستعداد الفطرة والغريزة تأثيراً أكبر من تأثير البيئة والوسط ، ورب سماء صافية الأديم وضاءة المنظر ، وتربة جافة الهواء معتدلة الحرارة تنبت رجلا سمج الطبع والخلق . ورب إقليم شديد الحرارة قليل النور بليل الهواء يخرج رجلا سليم الطبع رقيق الشعور » .

وفي انصرافنا من الحفل قال لي صاحبي الشاعر العراقي الأستاذ ابراهيم الوائلي : إن الشبيبي لم يكتب مقدمة لديوان الحبوبي ، وإنما الذي كتب مقدمة هذا الديوان هو الشيخ عبد العزيز الجواهري ، وبظهر أن النص الذي أتى به العقاد مأخوذ من « العراقيات » ، وهي مجموعة تضم عشرة من شعراء العراق ، فيها ترجمة للحبوبي بقلم الشبيبي .

ثم قام الأستاذ الشبيبي فألقى كلمة طيبة في تحية المجمع وشكر الأستاذ العقاد . ومما قاله أن للشعوب العربية في هذه المرحلة من مراحل يقظتها مطالب ، ومن أحوج ما تحتاج إليه ائتلاف في الأرواح وتقارب في المشارب والأذواق ، وتجاوب بين العواطف والأفكار ، وهذا مطلب جليل لا يتيسر لنا إلا إذا جمعتنا من لغة العرب جامعة أدبية كبرى ، واعتصمنا من هذه الفصحى بحصن حصين ، وجدير بهذا الأدب العربي الحديث أن يرى عاملا فعالا من عوامل الإنشاء والبناء ، وخليق به أن يتغلب على غيره من العوامل المفرقة الهدامة .

وقد جرت تقاليد المجمع على أن يتحدث العضو الجديد في حفلة الاستقبال عن سلفه حديثاً مسهباً ، ولكن الأستاذ الشبيبي اكتفى بالإشارة إلى مكانة سلفه الأستاذ الكرملي وفضله ، واعداً بأن يعود إلى تفصيل الكلام عنه في فرصة أخرى .

ثم كان من قسمة الأستاذ خليل السكاكيني أن يقدمه الدكتور منصور فهمي باشا ، إذ كشف القناع عن ناحية قال إن الأستاذ السكاكيني لا يحب إثارتها ، ولذلك حذره من الإشارة إلى أي ناحية من جهوده الأدبية الضاربة في ماض بعيد ، ربما يستنتج منها مدى عمره المبارك المديد؛ وعلى رغم هذا التحذير مضى الدكتور منصور باشا في هذه الدعابة فروى أن مدرساً كهلا استقبل الأستاذ السكاكيني في حيفا من عدة سنين بخطبة قال فيها إنه سمع عاطر الثناء على فضله وأدبه من الرحومة حماته ، وكانت صغرى تلميذات الأستاذ في دار المعلمات ... ثم قال إن الأستاذ سكاكيني يحق

عمره لأنه يدين بفلسفة القوة فى كل أمر من الأمور؛ فهو يتناوى الشيخوخة ويكره أن ينتمى إليها أو يذكر بها ؛ فإذا نظر من خلال فلسفته إلى اللغة فإنه لا يروقه منها إلا ما اتسم بالقوة والسلامة . وأفاض بعد ذلك فى بيان جهوده فى الإصلاح العلمى ومكانته فى عالم الأدب واللغة .

وكان الدكتور منصور فهمى باشا قد قال فى مستهل كلمته إن حلول السكاكينى ، وهو من أهل القدس ، محل الشيخ مصطفى عبد الرازق فيه ما يبشر بأن بركة فلسطين ستلتقى بالآثار المباركة لسلفه .. ولكنه لم يلبث بعد هذا الكلام أن رق فى مداعبة معلم الغابرين والحاضرين ، ومربى الجموات الفضليات ...

وألقى بعد ذلك الأستاذ السكاكينى كلمة طلية أودعها كثيراً من النظرات الفلسفية الرائعة ، وقد قال فى أولها : إذا كنتم تقيسون العمر بالسنين فقد بلغت من الكبر عتيا ، وإذا كنتم تقيسونه بالأعمال فأنا لا أزال فى دور الطفولة ، وإذا كنتم تقيسونه بما يلقاه المرء من الهناء والسرور فإنى لم أولد

ثم أخذ فى الحديث عن الشيخ مصطفى عبد الرازق فحلل صفاته ومواهبه تحليلا وافياً وأفاض عليه مما هو أهله من الثناء والتمجيد ، ولكنه جنح فى آخر الأمر إلى عبارات مألوفة فى التقريظ والمبالغة ؛ إذ قال : لو لم يسبقه الخليل لكان أول من وضع العروض، ولو لم يسبقه أرسطو لكان أول من وضع المنطق، ولو لم يسبقه ابن خلدون لكان أول من وضع علم الاجتماع. واستمر فى هذه الفروض ، ماراً بعديد من العلوم والمعارف وأوائل واضعيها ...

كشكول الأسبوع

* وجه خمسمائة من أقطاب الفكر فى فرنسا ، نداء إلى هيئة الأمم المتحدة بأن تكافح الحرب وتعتبرها عملا غير مشروع فى حل المشاكل . وقد كتب الأستاذ توفيق الحكيم يقترح على رجال الأدب والفكر فى مصر ان يحذوا حذوهم .

* انتهى فى هذا الأسبوع مؤتمر اليونسكو الثالث ببيروت ، وقد تقرر أن يعقد المؤتمر الرابع سنة ١٩٤٩ فى باريس ، والخامس سنة ١٩٥٠ فى فلورنسا .

* وصل إلى القاهرة يوم الأحد الماضى أعضاء المجلس التنفيذى لليونسكو ، وقد دعاهم معالى وزير المعارف فى المساء إلى حفلة شاى فى (شبرد) ودعا إليها الدكتور طه حسين بك .

* كتب الأستاذ كامل منصور بجريدة البلاغ مقالا قال فيه إن أساتذة كلية الآداب تنكروا للدكتور طه حسين بك وهم صنائعه . وقد استدعاه عميد الكلية وأمر بالتحقيق معه باعتباره خريج الكلية ومنتسباً إلى قسم الدراسات العليا بها . وقد أجرى التحقيق معه فعلا ، ورفع الأمر إلى مدير الجامعة توطئة لمحاكمته .

* اختارت الإدارة الثقافية بالجامعة العربية ، بعض الأساتذة وتعاقدت معهم على العمل فى ترجمة أمهات الكتب العالمية ، وستبدأ بترجمة كتاب الآداب العربية للمستشرق بروكلمان .

* سجلت الإدارة الثقافية الأناشيد التى اختارتها مما قدم إليها فى مسابقتها ، وأخرجت عدة نسخ مسجلة لكل نشيد منها ، لكى توزع على دور الإذاعة العربية كلها . وعلى ذلك سيذاع من هذه الأناشيد ما ليس لصاحبه « واسطة » فى الإذاعة المصرية — من بقية الإذاعات العربية . . .

نظرات في أدبنا المعاصر :

أذاعت محطة لندن العربية يوم الجمعة الماضى حديثاً للدكتور طه حسين بك عنوانه « نظرات فى أدبنا المعاصر » قال فيه إن الأدب العربى الحديث فى مصر مر بثلاث مراحل ، الأولى مرحلة الحرية التى دفع إليها الوعى الوطنى بعد الحرب العالمية الأولى ، وكان الأدب فى هذه المرحلة من حيث علاقته بالشعب ذا صبغتين اتصالية وانفصالية ، فكان الأدباء متصلين بالشعب حين يعبرون عن مطالبه وحقوقه السياسية ، وكانوا منفصلين عنه حينما كانت تتعلق كتابتهم ببعض النواحى الدينية والاجتماعية ، ولكن الشعب لم يلبث بعد ذلك أن تطورت أفكاره وأصبح يستسيغ ما كان ينكره. والمرحلة الثانية تبدأ من حوالى سنة ١٩٣٠ حين مال السياسيون إلى أخذ الأمور بالرفق والاعتماد فى

حل المشاكل على مضى الوقت ، فى ذلك الحين بدأ الأدباء أيضاً يتراجعون فى ميدان الحرية الذى كانوا فيه يركضون ، ويحاسبون أنفسهم فيما يكتبون قبل أن تحاسبهم السلطات ، فاعترى الجمود الأدب ، ولا يزال راسياً عليه . والمرحلة الثالثة جاءت بعد الحرب العالمية الثانية ، وفيها امتداد لجمود المرحلة الثانية ولكنها تتميز بنزوع الأدباء إلى الكتابة فى الحال الاجتماعية من حيث تصوير مظاهر الشقاء ومعالجة الأعداء الثلاثة ، الجهل والفقر والمرض ؛ وهو تصوير يبدو قاتماً لسوء الحال التى يصورها ، ويغلب التشاؤم على الأدب لذلك . وهناك مع هذا أدباء هربوا من ذلك الجمود ومن هذا الأدب الاجتماعى البائس ، إلى التاريخ : فهيكل يكتب فى حياة محمد وحياة الخلفاء ، والعقاد يؤلف العبقريات ، ويتجاوزها إلى التأليف فى الإله ، وطه حسين (المتكلم لا يزال الدكتور طه) يكتب على هامش السيرة ويتجاوز ذلك إلى عثمان وأحلام شهرزاد . وذلك لأن الأديب يشعر بالحاجة إلى الراحة ، وقد وجد أدباؤنا راحتهم فى التاريخ .

بقية المراسيين :

هناك من كبار أدبائنا — غير من ذكرهم الدكتور طه — من هربوا من الأدب كله إلى الرد على رسائل القراء الشاكين من مصلحة التنظيم ، وحل معضلات الحب التى تعرض لبعض الشبان والفتيات . .

الشخصية والجريمة :

فى يوم الجمعة الماضى انعقدت مناظرة بقاعة بورت التذكارية موضوعها « الشخصية والجريمة » اشترك فيها الدكتور أمير بقطر والأستاذ سلامه موسى والسيدة سمية فهمى والأستاذ مظهر سعيد . وقد دارت المناقشة بينهم فى الإجابة عن هذه الأسئلة : ما ذا يقصد بالشخصية وبالجريمة ؟ وهل الشخصية موروثة أو مكتسبة ؟ وهل يورث الإجرام أو يكتسب ؟ وإلى أى حد ينبغى أن يعفى المجرم من المسؤولية ؟

وأجمل ما اتفقوا عليه أن الشخصية هى مجموعة الصفات الجسمية والوجدانية والأخلاقية وتفاعلها ، وأن الشخصية الحسنة هى التى يلائم صاحبها بين تصرفاته وبين المجتمع ويتحمل تبعة أعماله ، والسيئة هى غير الملائمة المتخففة من المسؤولية ؛ وأن كلا من الشخصية والإجرام يتكون من الوراثة ومن البيئة ، وقد اختلف المتناظرون فى أيهما — الوراثة والبيئة — أكثر أثراً وإن كانوا متفقين على وجودهما فى الشخصية والجريمة .

وقد اختلفوا فى تعريف الجريمة ، فبدأت السيدة سمية بأن الجريمة لا حقيقة لها ، لأن ما يعتبره بعض البلاد جريمة قد لا يعتبره كذلك بلد آخر ، وما يستنكر ارتكابه فى زمن قد يستساغ فى زمن آخر ، ومثلت لرأيها بفظائع الحرب ومعاونة العلماء على استحداث المدمرات التى آخرها القنبلة الذرية ، مما يوصف بالبطولة والوطنية ، وهو فى الواقع وحشية منكرة . ووافقها الأستاذ سلامة قائلا إن الجريمة تتبع العرف وإنها ليست إلا الأعمال التى لا يقرها المجتمع . وخالفهما الدكتور بقطر والأستاذ مظهر ذاهبين إلى أن الجريمة كل تصرف يخرج على النظام ويقع منه ضرر على الفرد والجماعة وهى تكون فى زمن معين ومكان محدد . واشتد الخلاف بينهم عندما عرضوا للسؤال الرابع وهو الخاص بإعفاء المجرم من المسؤولية ، فقالت السيدة سمية والأستاذ مظهر بوجوب النظر فى حال المجرم من حيث نوع شخصيته ، فلا يعاقب ذو الشخصية المريضة كالذى يسمى « السيكوباتى » وغيره مما كونته ظروف البيئة تكويناً سيئاً ، وخالفهما الدكتور بقطر والأستاذ سلامة ، فقال الثانى إن المجرم من أى نوع متأثر فى إجرامه بالوراثة والبيئة على اختلاف تقدير حظه من كل منهما ، فكل مجرم لا يد له فيما يرتكب إذا أخذنا بقاعدة الإعفاء من الإجرام الاضطرارى . وقال الدكتور بقطر إنه لاحظ فى أثناء وجوده أخيراً بأمريكا ، أن الجرائم هناك قد كثرت بفضل علماء النفس الذين يعللون دوافع الإجرام تعليلا يعفى المجرمين من العقاب أو يخففه عنهم ، ويفسح القضاة لهذه التحليلات النفسية ، ويصدرون أحكامهم بناء عليها .

تعقيب :

لقد تبينت فى خلال هذه المناظرة بالمشاهدة والمثل العملى — أن العامية لا تصلح أبداً لغة للأفكار العلمية ، وذلك أن المتناظرين وخاصة السيدة سمية فهمى والأستاذ سلامة موسى ، كانوا يلجئون إلى التعبير العامى فلا يسعفهم فى إبراز ما يجول بخواطرهم ، فيستنجدون بالتعبير الفصيح ، فمن واتاه بلغ به ، ومن استعصى عليه اضطرب وملكه العى ، وقد وقعت السيدة من ذلك فى حرج شديد ، وإن بدا — على رغم تعثر لسانها — تمكنها من دقائق الموضوع ؛ وقد كانت تشكو من ضيق الوقت وعدم اتساعه

لمعالجة موضوع المناظرة ، والواقع أن الوقت كان يضيع بالتلجلج وتكرار العبارات العامية من غير طائل ، ولو أنهم أعدوا المناظرة ودونوا أفكارهم فى « تجربة » قبل الظهور على المسرح ، لأنوا بما يرجى منهم فى مثل هذه المناظرة ، فهم معروفون بالدراسة والبحث وسعة الاطلاع ، ولكن الارتجال والاستهانة باللغة الصالحة للتعبير العلمى الدقيق ، جعلاهم يقضون نحو ساعتين فيما لا يستحق هذا الزمن من أمثالهم ، وقد شعر الحاضرون بذلك ، وكانوا جمهوراً كبيراً ، أتوا ليستمعوا إلى هؤلاء الأعلام ، ولم يضنوا على عقولهم بثمن الدخول الذى تتقاضاه الجامعة الأمريكية ولعلها الوحيدة فى مصر التى تفرض أجراً على سماع المحاضرات والمناظرات العامة.

عباس خضر

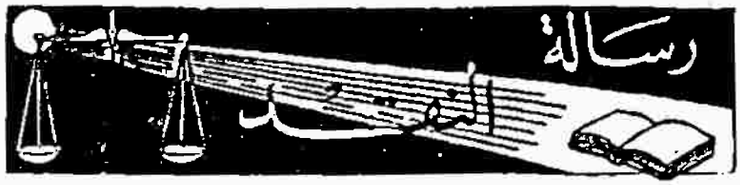

زوجات

ترجمة الأستاذ أحمد الصاوى محمد

كتاب رائع ، ذلك الكتاب الذى يقدمه الأستاذ أحمد الصاوى محمد إلى قراء العربية . وبهذا الكتاب يثب الصاوى وثبة أخرى فى الطريق الذى بدأه منذ سنين ، حين راح ينقل شتى الألوان من ثقافة الغرب إلى الشرق ، ويمزج بين هذه وتلك مزجاً موفقاً يقرب الشقة بين ذوق وذوق ، وبين فهم وفهم ، وبين شعور وشعور .

و « زوجات » يصدر معه كتابان آخران للصاوى هما « فوشيه » و « الغيرة من الماضى » ... ثلاثة كتب ومن قبلها بضعة وعشرون كتاباً ، تكون فى مجموعها ثلاث مدارس كما يحلو للأستاذ الصديق أن يصنف كتبه فينسب كلا منها إلى مدرسة خاصة ؛ فهناك مدرسة العبقرية ، ومدرسة الحرب والسياسة ، ومدرسة المجتمع ... وإلى هذه المدرسة الأخيرة ينتسب كتاب اليوم « زوجات » .

يقدم إليك الصاوى فى هذا الكتاب ثمانية ألوان من الطبيعة الإنسانية ، فى كل لون منها امرأة .. هى زوجة . وعلى اختلاف الميول وتباين الأهواء وافتراق النزعات ، تختلف الصور وتتباين الملامح وتفترق السمات ، ويتمثل لناظريك معرض من معارض الصراع القوى العنيف ؛ صراع العواطف والأفكار .. فيه لوحات نفسية ، وفيه نماذج بشرية ، وفيه مافيه من حيرة العقل ولوعة القلب ووقدة العاطفة واشتعال الوجدان!

وأقف بك وقفة متأنية ، متأملة ، عند الزوجة الأولى صاحبة « الكراسة الحمراء » ، تلك التى قضت العمر محلقة بالفكر على أجنحة الخيال ، تحلم حلماً طويلا لا نهاية له .. حلم أرض الميعاد ! هى قصة من روائع الأدب الفرنسى المعاصر لخصها الصاوى من قبل ثم عاد فنقلها إلى العربية نقلا أميناً ، كاملا ، احتفظ فيه بروح الفن فى لغته الأصيلة ؛ أما صاحبها فهو أندريه موروا عضو الأكاديمى فرانسيز وأما اسمها الحقيقى فهو « أرض الميعاد » ، ولكن قلم الصاوى شاء أن يخلع عليها اسماً آخر هو « الكراسة الحمراء » .. وقبل أن ألخص لك هذه القصة التى تشغل من الكتاب ما يقرب من ثلثيه ، قبل هذا أود أن أشير إلى قصة أخرى ظهرت فى أفق الأدب الفرنسى ، هى قصة « الباب الضيق » لأندريه جيد صاحب جائزة نوبل للأدب عن عام ١٩٤٨ . . فى قصتى جيد وموروا ناحية جديرة باهتمام القارىء المتمكن والناقد الذواق ؛ ناحية يلتقى فيها الكاتبان ويفترقان بعدها فى كل شىء !

أندريه موروا فى « أرض الميعاد » فنان ، وأندريه جيد فى « الباب الضيق » إنسان .. وكلاهما يبلغ القمة فى ميدانه : هذا فى إنسانيته وذاك فى فنه . وكلاهما يمضى بعد ذلك فى طريق ؛ تنزع القصة الأولى إلى الناحية الموضوعية أكثر مما تنزع إلى العرض والتحليل ، على حين تقتصر القصة الثانية على الناحية التحليلية الخالصة ، هناك حيث تطغى الألوان النفسية والظلال الإنسانية على كل ما عداها من ألوان وظلال ! وبعد ذلك أيضاً يمضى كل منهما فى طريق ... فبينما تجد موروا يصهر العواطف الإنسانية فى بوتقة الشهوة الجسدية العارمة ، تلقى جيد يصهرها فى بوتقة اللذة الروحية الهائمة ؛ هناك شىء من الإباحية السافرة المتجردة ، وهنا شىء من الصوفية القلقة الغامضة . . . وفى كلتا القصتين صراع ملح عاصف عنيف ، هو فى « الباب الضيق » صراع بين روح وجسد ، وهو فى « أرض الميعاد » صراع بين روح وأجسادا

في نطاق هذا الصراع الروحي الشاذ تتفق القصتان ويلتقي الكاتبان ، ولا أقول إنه اتفاق كامل أو التقاء كامل ، ولكنه اتفاق والتقاء على كل حال ، يتمثلان في شخصيتين وضعهما جيد وموروا تحت مجهر التحليل النفسي وهما « إليسا » بطلة « الباب الضيق » و « كلير » بطلة « أرض الميعاد » . كلتاهما خلقت تنشد الحب الذي لا تدنسه شهوة ، ولا يشوه من قداسته لذة ، ولا يعبث بطهره إثم ، وهذا هو الحب المثالي الذي تضيق به دنيا البشر ، وكلتاهما لقيت في سبيل هذا الحب آلاماً مبرحة وعذاباً لا يطاق ، وتلك حال من يعيشون على الأرض وقلوبهم متعلقة بالسماء ، لا شيء غير الصراع .. صراع القلب والعقل ، صراع الفكر والعاطفة ، صراع الجسد والروح ! ... أما موروا فقد شاء لبطلته أن تخضع لمنطق الحياة والناس على ما فيه من قسوة ومرارة ، ولكنه خضوع المجبر المغلوب على أمره حين تنوء عليه القوى فيلقي السلاح ، وتظل المعركة إلى الأبد محتدمة في نفسه وشعوره ؛ وهذا هو منطق الفنان ! ... أما جيد فقد آثر لبطلته أن تقاوم حتى النهاية ، وأن تحمل من الشقاء في سبيل مثلها العليا فوق ما يحمل طوق الأحياء . لقد استحال جهاد الإنساني على مر الزمن حباً إلهياً فيه من شفافية التصوف ما يقرب بينها وبين الله . . . وفي فصل اليوميات من « الباب الضيق » تهتف « إليسا » من الأعماق مشيرة إلى « جيروم » : « يا إلهي ، تمنيت لو نقبل كلانا عليك ، تدفع أحدنا قوة الآخر! لو نمشي كل طريق الحياة حاجين يقول أولهما للثاني : استند إلى ذراعي يا أخي إذا تعبت ، فيجيبه : حسبي أن أراك إلى جانبي ! ولكن لا ؛ إن الطريق التي توصلنا بها يا إلهي طريق ضيقة ، ضيقة حتى ما يستطيع سلوكها قرينان ! ... يا إلهي ، لم اخترت لنفسي مرارة الحرمان ! أترانى أطلب غير الحب فتنة أعذب وأقوى ! آه لو تملك دفع نفسينا معاً بقوة الحب إلى ما وراء الحب نفسه ! » وهذا هو منطق جيد .. منطق الإنسان !

وأعود بك مرة أخرى إلى قصة أندريه موروا . . . نشأت كلير منذ صباها المبكر تتطلع إلى الحب بعينين حالمتين وقلب ظمآن ، ولكن مربيتها الإنجليزية ذات الطبع البارد والوجدان الفاتر كانت تحذرها دائماً من أخطار الحب ، ونزوات العاطفة ، وغواية الرجال .. كانت كلما حلمت أحلام اليقظة على جناح الأمل إلى أرض الميعاد ، ردها صوت المربية العجوز إلى أرض البشر : إحذري يا فتاة إن الرجال ذئاب ، تقودهم إلى مهاوي الرذيلة شهوات وغرائز ! وشبت كلير عن الطوق ولا يزال في نفسها وسمعها من دروس المربية العجوز رنين وأصداء ! ... أما أنوارها فقد تلقت عنهما من الدروس ما طبع نظرتها إلى الحياة بطابع القلق والحيرة والترجح بين قسوة الواقع ومثالية الخيال ؛ كان أبوها ضابطاً كبيراً عوده جنوده أن يأمر فيطاع ، وعودته الطاعة العمياء أن يرى فيمن حوله آلات يدفعها فتندفع !

وهكذا عاشت كلير . . لا يسمح لها أن تبدي رأياً ، ولا يؤذن لها أن تعلق على أمر ، ولا يتاح لها أن تعترض على وضع من الأوضاع . . . أما أمها فكانت امرأة شاذة غريبة الأطوار ، لا تعترف بهذه العاطفة المقدسة التي يسميها الناس حباً ، وكثيراً ما كانت تضم صوتها إلى صوت المربية العجوز في تحذير ابنتها من لعنة الحب ، وخبث الطوية عند الرجال ! . . ومما ترك أثراً عميقاً في نفس كلير أنها كانت كلما قادها الخيال إلى حلم كل عذراء ، إلى ليلة الزفاف ، ارتفع صوت مربيتها ليقول لها في دهشة مقرونة بالعجب والاستنكار : « ليلة الزفاف ؟ ألا تعلمين ما هية ليلة الزفاف ؟ ! ... تصوري مذلة أن تتجرد المرأة أمام رجل ، وأن تظل عارية تماماً رهن مشيئته ، وطوع إرادته ، وتحت رحمته ! ... آه من شناعة هذا كله ! »

في هذا الجو الملبد بالقسوة ، المفعم بالرهبة ، الحافل بالشذوذ ، عاشت كلير ... ومن هذا الجو الخانق خرجت إلى الحياة لتواجه الحقائق بعقلية الأب والأم « ومس برنكر » المربية العجوز ، عدوة الرجال ولكنها كانت أبداً تحلم بأرض الميعاد، أرض العبقرية، أرض النبوغ . أرض الوحي والإلهام .. كانت تتمنى أن تصبح يوماً كاتبة عظيمة أو شاعرة عظيمة ، وحين لم يتحقق لها شيء من هذا كله ، راحت تحلم بأن تكون زوجة لكاتب عظيم أو شاعر عظيم ، وما أجلها من أمان عذاب وهي تتخيل نفسها إلى جانبه ، تعطف عليه فتوحي إليه ، وتلهبه فتلهمه ، ويذوقان معاً أول قطرة من قطرات الخمرة المسكرة .. خمرة الفن والمجد والخلود !

ولكن الأيام تمضي بها في طريق كل معالمه صخور وأشواك .. لقد دفعت بها إلى أحضان رجل لا يفهم لغة الفن ، ولا موسيقى العواطف ، ولا نبضات القلوب ؛ وهكذا قدر لكلير أن تعيش في رحاب زوج لا يكاد يرى المرأة إلا من وراء منظار الشهوة المحترقة ، الشهوة التي تنشد الجسد ولا تعبأ بنداء الروح ، الشهوة التي لا تصغي لصوت غير صوت الغريزة ، صوت الحيوانية المتأججة في الأعماق ! . كان « ألبير لاراك » ملكا من ملوك

المال ، وفى بيته عاشت كلير كما تعيش الملكات ، ولكن شيئاً واحداً كان يحيل النور فى عينيها الساحرتين ظلاماً ، ويلهب روحها بسياط العذاب ، ويفجر الألم فى أعماقها تفجيراً . . . هو تلك العلاقة الجنسية « الشائنة » التى يفرضها عليها منطق الحياة والأحياء ! . . . هـذه الروحانية الشفافة التى كانت تحلم بها فى أرض الميعاد ، وهذا الهيام العلوى الذى كان يربطها بالسماء ، وهذا الشعور المثالى الطليق المحلق فى آفاق الخيال ، هذا كله قد تحطم على أرض البشر . . . ويا ويح الخيال حين يرتطم بقسوة الحقيقة ومرارة الواقع ! حتى هذا الطفل الذى أنجبته لم يثر فى حنايا الضلوع عاطفة ، ولم يشعرها يوماً بحنان الأمومة ؛ لقد كان يذكرها دائماً بأنه أتى إلى الدنيا عن هـذا الطريق الذى كانت تبغضه ، وتنفر منه ، ويرمض جوانحها بالعذاب . طريق العلاقة الجنسية « الشائنة » ، علاقة « الشقاء المقدس » لا الرباط المقدس! هكذا كانت تشعر كلير ، وتنظر إلى منطق الحياة والناس!

أرض الميعاد ، ولا شيء غير أرض الميعاد .. أين من يقودها إلى هذه الأرض التى أقامت لها فى معرض الفكر صوراً فاتنات ، وحشدت لها الخيال يمدها بكل ما فى إبداعه من ألوان وظلال ! لقد وجدته ، وجدته أخيراً وكأنهما كانا على ميعاد ، وجدته فى شخص شاعر عظيم فتنها برقته ، وغزا قلبها بعبقريته ، وسحرها بلطف حديثه ، وكان اسمه .. « كريستيان منتربيه » !

وفى هـذا الظل الظليل من عبقرية الحب وحنان الحبيب ، نسيت كلير أن لها زوجاً وبيتاً وابناً .. كل خلوة مع الشاعر ، وكل رحلة مع الشاعر ، وله ألف نزهة تهيئها الأحلام تحت ضوء القمر ! . وتصل أنباء الزوجة إلى الزوج بعد أن أصبحت حديثاً تجهر به الشفاه ، وينتهى الأمر بينهما إلى الطلاق . ويعود هو إلى أشجانه ، وتعود هى إلى كريستيان منتربيه !

وفى رحاب الزوج الجديد عاشت كلير .. عاشت فى رحاب الرجل الذى ضحت فى سبيله بالزوج والابن وكل نعيم يهيئه المترفين سلطان المال ! وكم عطفت عليه فأوحت إليه ، وكم ألهمته فألهمته ، ولكنها لم تذق معه تلك الخمرة المسكرة ... الخمرة التى عتقتها الأوهام فى دنان أرض الميعاد ! لقد كان الشاعر والأشقاء بشراً كسائر البشر ! ! وفى تلك الرسالة التى بعثت بها كلير إلى كريستيان بعد اثنى عشر عاماً من زواجهما ، يصور أندريه موروا بريشة الفنان المبدع ، كل ما كان يعتلج فى نفس بطلته من صراع رهيب بين الروح والجسد ، ظل إلى أن ودع الشاعر الحياة ، أنفاساً من وهج اللوعة وفنوناً من عبقرية الألم ! .

ونقتطف هنا فقرات من هذه الرسالة الملتهبة :

« يا حبيبى الأعز ، إننى منذ مقامى هنا قد بدأت ثم مزقت عشر مرات رسالة كنت أريد وكان ينبغى لى أن أوجهها إليك منذ وقت طويل . إن ما لدى وعلى أن أقوله مؤلم لى ، وأخشى أن يسبب لك الما . . . إننى لا أظن يا كريستيان أنك تستطيع أن تتصور إلى أى حد قد تألمت منذ اثنى عشر عاماً ، لقد كنت معجبة بك ، لقد كنت أحبك ، لقد كنت غير راغبة فى أن أكون لك . لا لك ولا لسواك . وما كان أسعدنى لو بقيت إلى جانبك صديقة ، أو لو استطعت خاصة أن أكون ملهمة ، ولكنك لم ترد ذلك ! وقد استسلمت خافضة جناح المذلة لأنى خشيت إذا أنا قاومتك أن أفقدك . . . لقد توقعت منك إذا أنا فرضت على نفسى تضحية إعطاء نفسى ، أن أجد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت مما لم ينكشف لى الزواج عنه الحجاب ، غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، ولم ينكشف لى الحجاب عن الوادى العجيب ، ولم ألمح أرض الميعاد يا كريستيان !

إنى أحبك يا كريستيان ولا أحب سواك ، وإن من عناصر مأساتى أننى لك وسوف أكون مخلصة إخلاصاً لا يأتيه الشك ولا ينال منه شيء ولو بلغ بى اليأس والقنوط حد الجنون .. إنك لو أردت فوضعت فى زواجنا من الشعر بقدرما تصنع فى غراميات الأبطال الذين تخلقهم ، فربما كنت أبلغ من الحرارة الدرجة العالية علواً خارقاً ، الدرجة اللازمة لتصهر تحفظى وتذيب جمودى . . . إن فى الحياة الزوجية — على النحو الذى يخيل إلى وكما أتصورها — شيئاً متكرراً ، شيئاً فاحشاً يثلج بدنى ! وإنى أفترض أننى مخطئة ، وأن المرأة الطبيعية العادية تجد شيئاً طبيعياً عادياً هذا « الهوى الجسدى الأعظم » كما هو عندكم أيها الرجال كل مساء ، من دون أن تتلف هذه الحركات والإشارات فى كل مرة بالشعر والقلق والجمال . لكن ما حيلتى وقد خلقت هكذا ؟ ! .. إن أعصابى تحترق شيئاً فشيئاً من تكرار هذه المأساة ، بل إن عقلى نفسه قد اضطرب ! وتتصاعد فى كيانى أبخرة الضغن والغيرة ، وأحياناً الحقد ، على تلك المخلوقات البريئة التى كل جريمتها عندى أنها تتذوق لذات تأباها على طبيعتى ... ! »

بعد هذه الزوجة الشقية التعسة ، تجد ست زوجات أخرى تلخص الصاوى حياتهن من قصص ومسرحيات مطولة فى الأدب الفرنسى ، وسترى أن واحدة منهن قد لقيت من الشقاء والتعاسة

الخطـــاب

للكاتب الانجليزي كرلين هوارد

هتف الرجل الصغير قائلا وقد بدت على محياه دلائل الارتياك وهو واقف بجوار الصندوق — أنى مسرور لرؤيتك !

فتوقف وتلفت إليه قائلا — مرحباً ... السيد سيمسن ، أليس كذلك ؟

كان سيمسن وزوجه حديثي العهد بالحى ، ولم أكن قابلتهما أنا وزوجى إلا مرة أو مرتين .

وأجابنى سيمسن قائلا « أجل — هذا صحيح ! » وكان يبدو أنه مسرور لتعرفى عليه سريعاً . واستطرد قائلا « أنى لأتساءل : هل أستطيع أن تقرضنى ثلاثة أنصاف من البنسات؟»

فدفعت بيدى أبحث فى جيبى ، وأنا أسمعه يقول « إن زوجتى قد سلمتنى هذا الخطاب لألقيه فى صندوق البريد ، ولكنى لاحظت الآن فقط أن الظروف خال من طابع البريد » .

قلت مرافها — خل عنك ... فكثيراً مايحدث ذلك .

قال يجب أن يسافر هذا الخطاب الليلة — لابد أن يسافرا ولا أظن أنى سأجد مكتباً للبريد مفتوحاً فى هذا الوقت المتأخر من الليل . أتظن ذلك ؟

كانت الساعة قد أشرفت على الحادية عشرة ، فأمنت على أقواله .

واستطرد يقول — لذلك فكرت أن أحصل على طابع بريد من هذه الآلة ، عندما وجدت أنى لا أحمل نقوداً صغيرة

فقلت له بعد أن بحثت فى جيبى عبثاً — أنى شديد الأسف . أخشى ألا يكون معى مثل هذه النقود .

فصدرت عنه آهة تدل على الأسف ، قلت - لعل عابر سبيل يمر ... فقاطعنى قائلا — لايوجد أحد ...

ونظرت إلى جهة من الطريق ونظر هو إلى الجهة الأخرى . ثم التفت إلى ناحيتى والتفت إلى ناحيته دون جدوى . وأخيراً هممت بالرحيل . ولكنه يبدو وحيداً مرتبكا وقد أمسك بيده مظروفا أزرق اللون فلم أقو فى الواقع على تركه وهو فى هذه الحال . فقلت له — دعنى أخبرك ما الذى نفعله . من الأفضل أن ترافقنى إلى دارى . أنه على مقربة من هنا . وسأحاول أن أحصل لك على نقود صغيرة .

فقال سيمسن — أنه للطف منك حقاً !

وفى الدار ، استطعت بعد لأى أن أعثر على ثلاثة أنصاف من البنسات فأعطيتها إياه فأخذها منى شاكراً ، ثم جعل يدون فى مذكرته — بطريقة رجال الأعمال — قيمة القرض ، ثم رحل . وراقبته وهو يذرع الطريق بخطواته ، ثم يتوقف ، ثم يعود إلىّ . وقال لى — إنى آسف لإزعاجك مرة أخرى . الحقيقة إنى لا زلت غريباً عن هذا الحى ، وهأنذا قد ضللت الطريق . لعلك ترشدنى إلى مكتب البريد .

وحاولت إرشاده ، وقضيت بعض الوقت أشرح له موقع المكتب دون جدوى . وأخيراً وجدت نفسى فى حيرة كحيرته عند ما صرح قائلا — أخشى أنى لم أفهم ... فقاطعته قائلا — من الأفضل أن أرافقك . فعاد يردد قائلا — إنه للطف كبير منك!

ومرنا فى طريقنا حتى وصلنا إلى مكتب البريد . ووضع سيمسن قطعة من النقود فى ثقب الآلة ، فسقطت داخلها فى صليل عال دون أن يظهر للطابع أى أثر . ونظر إلىّ سيمسن نظرة حائرة وكأنه يتساءل ما الذى يستطيع عمله . فشرحت له قائلا « أن الآلة فارغة من الطوابع . » فتأوه فى أسف ، وانضم

ما لقيت كلير ، وهى « زوجة الكاتب » . . . وأن أخرى قد لقيت من ذل الحياة وقسوة الأيام أضعاف ما لقيت بطلة أرض الميعاد ، وهى « زوجة الضابط » . . . وأن ثالثة قد واجهت العاصفة بصبر وثبات وزجاجة عقل حتى بلغت الشاطىء ، وهى « زوجة الوالى » .. أما مسرحية « أزواجها الثلاثة » فقد كانت بمثابة البسمة الشرقة وسط مآسى الدموع ا.. أما الزوجة السابعة والأخيرة فبطلة قصة مصرية كتبها الصاوى بقلمه تحت عنوان « زوجه الطبيب » ، ولعل هذه القصة هى الثغرة الوحيدة فى هذا الكتاب ، الثغرة التى ينفذ منها الناقد إلى شخصية الصاوى الفنية ككاتب قصة .. لقد كان فيها مجال رحب للخيال المفتن ولكن الصاوى وجه كل عنايته إلى الإطار دون أن يحفل كثيراً بتلوين الصورة ، ومن هنا فإن الحركة النفسية قد اعتراها شىء من الجمود ، مبعثه تلك اللمسات السريعة العابرة فى مواقف تحفل بعنف الصراع وفورة العاطفة !

أنور المعداوى

لنا أن طوابع أنصاف البنسات قد نفد أيضاً ووقف سيمسن مضطرباً حائراً . وإذا بالظروف يسقط منه ويقع على الأرض فاستعاده وقد تلوث بالوحل . وصاح فى انفعال « انظر ، لقد تلوث بالوحل ! » ثم طرق على الآلة الفارغة فى حنق وهو يقول «حسن ، ما الذى نستطيع عمله الآن ؟ » فاستنتجت من سؤاله هذا أنه قد أشركنى فى حيرته ، فسألته « أمن الضرورى أن يسافر هذا الخطاب الليلة ؟ » . فأجاب « نعم ! نعم إن زوجتى قد ألحت على أن ألقيه هذه الليلة . قالت ولكن من الأفضل أن ألقيه الليلة إذا كنت تعرف ما أعنى »

وكنت أعرف ما يعنيه من قوله هذا ، أو على الأقل أعرف زوجه مسز سيمسن . وتذكرت فجأة ما جعلنى أقول له «أتعرف أن عندى دفتر طوابع للبريد فى دارى ! » .

فقال فى لهجة لا تخلو من التقريع « كان يجب أن تفكر فى ذلك من قبل ! » .

فقلت «من الأفضل أن نسرع وإلا فاتنا موعد سفر الرسائل» وأسرعنا الخطى ، وكان هذا من حسن حظنا ، لأنه أستغرق بحثنا مدة طويلة قبل أن نجد الدفتر وإذا به خال من طوابع البريد.

وجعل سيمسن يقلب الفكر وهو يقول « يا لخيبة الأمل ! »

قلت « عجباً ! أكاد أقسم أن الدفتر كان ممتلئا بالطوابع ! ».

فسأل فى حزن « ولكن ... ماذا أفعل فى خطابى ؟ » .

قلت « سنضطر أن نلقيه دون طابع » وكان اهتمامى بذلك الخطاب قد بدأ يقل تدريجيا .

قال وقد عاوده الأمل « أوه — أأستطيع أن أفعل ذلك؟! »

قلت « ما الذى تستطيع عمله خلاف ذلك ؟ كل ما هناك أن من يتسلم الخطاب يدفع ضعف قيمة أرساله فى الصباح الباكر » . قال « إنى لا أود أن يحدث ذلك » .

قلت « ولا أنا . ومع ذلك . فليكن . أنها متاعبه وليست متاعبنا . أسرع الآن وإلا فاتنا آخر موعد لاستلام البريد . »

وأسرع سيمسن فى حماسة ، فصحت به « انتظر ... إن المكتب فى الناحية الأخرى من الطريق » .

فعاد وهو يلهث قائلا « آسف . أظن أنى ضللت الطريق مرة أخرى . » .

ولم أحاول أن أشرح له ثانية ، بل أمسكت بذراعه فى قوة وقدته إلى مكتب البريد فى اللحظة التى كاد يتم فيها استلام الرسائل — وكنت أعرف أنى بمرافقتى إياه سأوفر على نفسى بعض الوقت — ثم ألقى بخطابه بين الرسائل الأخرى ، وأخيراً عدت به إلى داره .

وقال وهو يودعنى : « أشكرك شكراً جزيلا على كل ما فعلته . أنى لا أتمالك من التفكير ... ما الذى كنت أفعله بدونك ؟.. أن ذلك الخطاب .. أنه لا يحوى سوى دعوة للعشاء موجهة إلى ... يا الهى ! » .

— ماذا ... ما الأمر ؟ .

— لاشىء ... لقد تذكرت أمراً ...

— ما هو ؟

ولكنه لم يفه بكلمة ، بل اتسعت عيناه وهو يحدق فىّ طويلا ؛ وأخيراً حيانى وأسرع إلى الداخل .

وعجبت وتساءلت وأنا أسير عائداً إلى دارى ما الذى تذكره ؟ ولكن ... ما لبث أن زال عجبى فى الصباح الباكر عندما دفعت لساعى البريد ثلاثة بنسات قيمة استلامى مظروفاً أزرق اللون بغير طابع . . قد تلوث بالوحل ! !

محمد فتحى عنبر الوكيل

الادارة الهندسية القروية

بالشرقية

تعلن تأجيل فتح مظاريف مناقصة إنشاء دورة مياه مسجد ناحية بنى حسين مركز منيا القمح جلسة ١٩٤٨/١٢/١١ إلى ظهر يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٤٨ مع إضافة دورة أخرى بناحية المجازر مركز منيا القمح . وتطلب الشروط والمواصفات من الادارة على عرضحال تمغة فئة ثلاثين مليما نظير دفع مبلغ جنيه بخلاف مائة مليم أجرة البريد ويمكن الاطلاع على الرسومات بمكتب الادارة بالزقازيق .

٨١٧

انتـــــظروا

عدد « الرســـالة » السنوى « الممتاز »

فى يوم الاثنين ٣ يناير سنة ١٩٤٩

وهو حافل كعادته بأروع ما يكتب فى موضـــوعه

لصـــفوة من أقطـــاب البيـــان

فى مصر والعـــالم العربى

نسخه محدودة وثمنه ثلاثون مليما

سكك حديد الحكومة المصرية

مواعيد فصـــل الشـــتاء

يتشرف المدير العام باحاطة الجمهور أن مواعيد القطارات فى فصل الشتاء سيبدأ العمل بها من ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤٨ وقد أعدت جداول الحائط ودفاتر الجيب للبيع للجمهور .

ونوجه النظر إلى التعديلات التى ادخلت على مواعيد بعض القطارات لا سيما الفاخرة وإلى القطارات الجديدة التى أضيفت وعلى الأخص فى الوجه القبلى لتحسين الخدمة .

المدير العام

عبد الجبار برد

مطبعة الرسالة